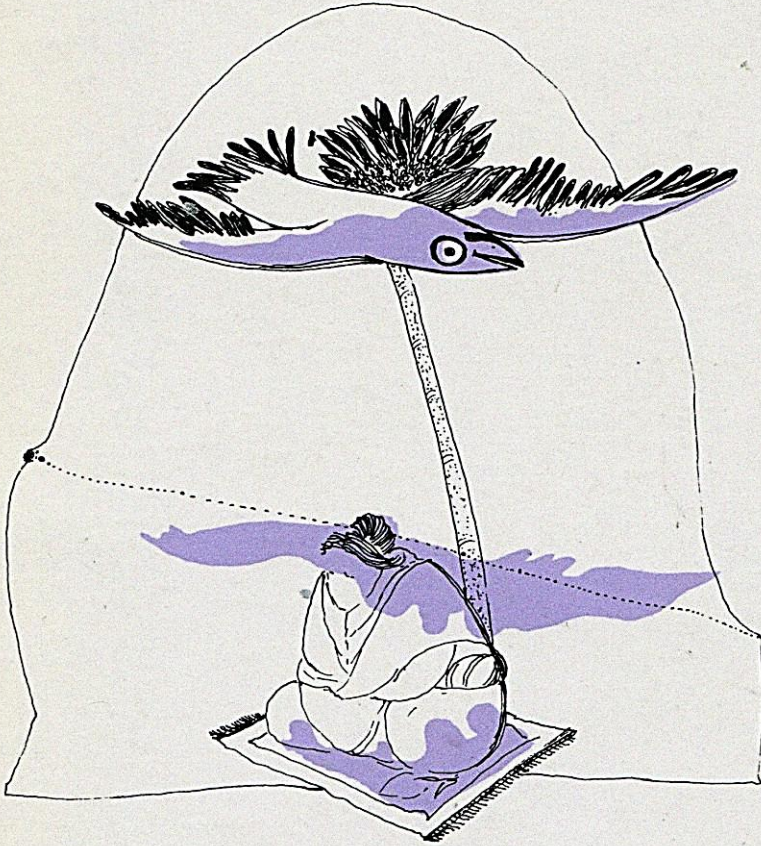


شيتشرو فوكازاوا

ناراياما

رواية يابانية



ترجمة: محمد علي اليوسفي

١٧٥
٥٧
١١٩ × ٢٩

تاریخ

* الطبعة العربية الأولى ١٩٨٢

* جميع الحقوق محفوظة .

دار التنوير للطباعة والنشر . ص . ب ٦٤٩٩ - ١١٣

بيروت - لبنان . الصنوبرة - أول نزلة اللّبان - بناية عساف .

* الناشر :

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر . ص . ب ٥٨٠٣ - ١١٣

بيروت - لبنان . هاتف ٣٤٥٥٧١ تللكس : دلنا ٢٠٦٣٩ .

* التنفيذ الفني : دار المثلث ش . م . م .

شيتشرو فوكازاوا

فارياما



ترجمة: محمد علي اليوسفي

يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الفرنسي :

SHICHIRO FUKAZAWA

Etude à propos des chansons de Narayama.

تقديم

ولد فوكازاوا في إيزاواماشي وهي منطقة جبلية في وسط اليابان جمعت بين قسوة أرضها وعزلة سكانها بعيداً عن التأثيرات الخارجية. ولم يدرس أكثر من المرحلة الإعدادية لكنه شغف بالأدب وقرأ العديد من المؤلفات وخصوصاً روايات «تانيزاكي جونو تشيرو» الذي يعتبره فوكازاوا أستاذاً له. لكن معلميه الحقيقيين هم الفلاحون الذين عاش مابينهم والجبل الذي ولد فيه وأخيراً الموسيقى التي تعلق بها باكراً وطبعت إيقاعاتها كتاباته الثرية.

لذلك درس الموسيقى وشارك في فرقة مسرح المنوعات في طوكيو. لكن مجرى حياته تغير فجأة إثر كتابته لـ «ناراياما بوشيكو» (دراسة في أغاني ناراياما). فاهتمت بها مجلة «تشوو كورن» ونشرتها ثم منحته عام ١٩٥٦ جائزتها السنوية «جائزة الإنسان الجديد» وكان عندئذ قد بلغ الثانية والأربعين من عمره، فذاعت شهرته بسرعة. وانقسم النقاد إلى منددين بقسوة روايته وفضاظتها الصريحة، ومدافعين عن إنسانيتها العميقة وشاعريتها الغربية التي تبدو مقبلة من غابر السنين، ونسبجها الموسيقي المتأتي من مخزون شعبي عريق. وكان من الذين اهتموا بها الناقد «ماسامون هاكوتشو» والروائي ميشيما يوكيو. . .

وفي عام ١٩٦٩ نشر فوكازاوا «أمراء طوكيو». لكنه قبل ذلك وفي ١٩٦٠ تحديداً نشر قصة حلم، يصف فيها هجوماً خيالياً على القصر الإمبراطوري فهزّت القضية قطاعات من الرأي العام. ورغم تأكيد الكاتب بأنه لم يقصد أي هدف سياسي فقد استثيرت جماعات

متطرفة وتسببت في عدّة أحداث مأساوية الأمر الذي دفع فوكازاوا إلى الهرب والإختفاء عدّة أعوام. فعاد إلى أوساط الفلاحين واهتم بالزراعة وتربية الحيوانات، دون أن يكفّ عن الكتابة. ونشر عدّة كتب وروايات منها «أغاني الهدهذة في مقاطعة كاي» عام ١٩٦٥ ومجموعة محاورات عام ١٩٧٣، حتى أقعده المرض عن الكتابة...

* *

تأتي أحداث «ناراياما» على شكل مجموعة من الأغاني، يوهمنها الكاتب بأنه لم يقم سوى بجمعها من أجل إعادة منهجية لمجتمع كامل، عبر الإيحاءات التي تتضمنها تلك الأغاني، وهذا ما يفسّر العنوان الأصلي الذي حاول أن يكون علمياً: دراسة في أغاني ناراياما.

تدور أحداث القصة في مجتمع مغلق تبخل عليه الأرض بالقوت فيلجأ إلى سنّ قوانينه وأخلاقه الخاصة والملائمة لندرة الغذاء. فيبدو المبدأ الأخلاقي قاسياً بل متوحشاً للوهلة الأولى، لكنه يتضمّن أعلى مراتب الفضيلة إلى جانب البشاعة. وتلوح فكرة البوذية الأساسية وهي عقيدة «الكارمان» التي تقول بأن «الأفعال تتبع صاحبها وتصنعه» في مصير شخصيات «ناراياما» وخصوصاً مصير ماتا-يان وأورِن: الأول، بأنانيته، والثانية، بتفانيها وإنكار ذاتها. الأول، تلتهمه الطيور السوداء، والثانية، تغطيها الثلوج مثل زهرة لوتس بيضاء في أرض ناراياما المقدسة. (١)

(١) اعتمدنا في هذه المقدمة أساساً على المعلومات التي أوردها المترجم الفرنسي، برنار فرانك، عن اللغة اليابانية، وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الهوامش في الكتاب. (المترجم).

جبال تليها جبال. وحيثما ذهب المرء لا يجد سوى الجبال. وفي وسط جبال شينشو^(١) تلك، على تخوم قرية موكو-مورا (القرية المقابلة) يوجد بيت أوران. وأمام البيت كانت توجد أرومة كياكي^(٢) ناعمة السطح مثل لوح. فكان الأطفال وعابرو السبيل يقعدون عليها: هي لهم بمثابة كنز. لذلك يطلق سكان القرية على بيت أوران اسم «الأرومة». حلت أوران في هذا البيت كنةً، منذ أكثر من خمسين سنة.

في هذه القرية، يُطلق على القرية التي وُلدت فيها أوران اسم «القرية المقابلة». ونظراً لكون كلتا القريتين ليس لهما اسم، فإن الاسمين المتعارف عليهما من الجهتين هما «القرية المقابلة». ورغم أن القوم يقولون (القرية المقابلة) فإن ثمة جبلاً ينبغي اجتيازه قبل بلوغ القرية الثانية. بلغت أوران في هذا العام تسعاً وستين سنة من العمر، لكن زوجها مات منذ أكثر من عشرين عاماً. أما زوجة ابنها الوحيد تاي فقد ماتت بدورها في العام الماضي عندما ذهبت لجمع الكستناء فهوت في أحد المنحدرات وقُتلت. وما يزيد في وجع رأس أوران، فضلاً عن اعتنائها بأحفادها الأربعة الذين ظلوا أحياء، إنما هو البحث عن زوجة ثانية لابنها تاي الذي ترمّل. والحال أنه لا توجد أرملة ملائمة في هذه القرية، ولا في القرية المقابلة.

في هذا اليوم سمعت أوران صوتين كانت تنتظرهما. الأول يتعلق بأغنية العيد التي ردها شخص كان يذهب في الصباح إلى الجبل الذي وراء القرية:

(١) مقاطعة جبلية في وسط اليابان.

(٢) أشجار من فصيلة الدردار.

عندما عيد ناراياما لثلاث مرات يجيء
من ثمار الكستناء التي سقطت تبرز الأزهار

إنها أغنية رقصه أُلِّ «بون»^(١) في القرية وقد تساءلت أو رن عما
إذا كان سيغنيها أحدهم قريباً. ففي هذا العام لم يغنّها أحد بعد؛
لذلك قلقت أو رن. وهذه الأغنية تقول، عندما تمر ثلاث سنوات
يكبر المرء ثلاثة أعوام ، ولما كان بلوغ المرء في القرية سبعين عاماً
يتطلب منه الحج إلى ناراياما^(٢) فالأغنية تعلن للمسنيين أن ذلك الزمن
يقرب.

أرهفت أو رن سمعها باتجاه الجهة التي انطلقت منها الأغنية.
نظرت خلصة إلى وجه تاي الذي كان يوجد بجانبها: لقد كان تاي
ينصت بدوره رافعاً ذقنه وكأنه يلاحق صوت المغني. لكنها لاحظت
بريقاً يلعب في عينيه، ففكرت: «سوف يذهب تاي مع أو رن إلى
حج ناراياما.» وحسب تعبير نظره، لاجمال للشك، إنه مشغول بذلك،
هو الآخر.

«ابني طريف وطيب!»
وانقبض صدرها.

أما الصوت الثاني الذي انتظرته أو رن، فهو يتعلق بناقل بريد،
جاء من قبل أهلها ليعلن أن امرأة قد ترملت في القرية المقابلة. وهذه
الأرملة خمس وأربعون سنة، العمر نفسه الذي لتاي. لقد دُفن زوجها
منذ ثلاثة أيام، كما يبدو. وما دام العمر مناسباً فلإن القضية تُعدّ
منتهية. جاء ناقل البريد ليعلن أن امرأة ترمّلت، ثم عاد بعد أن تم
تحديد اليوم الذي ينبغي أن تأتي فيه ككئة. كان تاي غائباً حينها في
الجليل. ولا يمكن القول إن أو رن قد اتخذت القرار بمفردها: لنقل

(١) عيد الموق البوذي، يحتفل به خلال الشهر السابع من السنة القمرية، وتقام فيه
رقصة ليلية ترافقها أغان يطلق عليها اسم: بون-أودوري.
(٢) ناراياما تعني حرفياً «جبل السنديان».



بالأحرى إن الأشياء تقررت بمجرد سماعها كلمات ناقل البريد. يكفي أن تطرح المسألة على تاي عندما يعود، وهكذا تكون الأمور على مايرام. إذ أن مسائل الزواج عند بعض العائلات تحل ببساطة. والذين يتبادلون الإعجاب يختارون أنفسهم بعد حوار حر بينهم ولا يوجد أي حدث خاص من نوع حفل الزواج: تكتفي المعنية بالذهاب للسكن في البيت المقصود، وهذا كل شيء. ويلجأ البعض إلى وسيط أحياناً، لكن متى ما تناسبت الأعمار، انتهت القضية؛ تزور المعنية البيت المقصود ثم تقيم فيه نهائياً، وتنتهي، دون تحديد الفترة، إلى أن تصير من أفراد العائلة. يوجد «البون» والعام الجديد، ولكن نظراً لعدم وجود مكان تسلية، فإن التسلية الوحيدة هي عدم الذهاب إلى العمل، وهذا كل شيء. أما تجهيز طعام شهية فلا يتم إلا في عيد ناراياما، ويتم كل ما تبقى باختصار.

نظرت أوران طويلاً نحو الجهة التي عاد إليها ناقل البريد. لقد قال إنه مبعوث من قبل أهلها، لكنها فكرت بأن من شأنه أن يكون أحد أقارب المرأة التي ستأتي كنة. لم تمر أكثر من ثلاثة أيام على موت زوجها، وهذه الطريقة في التسرع والرغبة في إنهاء القضية قريباً تبدو وكأنها تدل على تلهف الأرملة للزواج من جديد. «وهو بالنسبة لنا، أيضاً، أمر مناسب جداً». حدثت نفسها.

وما دامت أوران ستبلغ السبعين عاماً في السنة المقبلة وهو سن الحج إلى ناراياما، فقد عيل صبرها وهي تتساءل عما يمكن فعله إذا لم تترمل أية امرأة حتى ذلك الوقت. لكنّها قد ترملت إحداهن. وهي ملائمة من حيث عمرها. وبعد قليل سوف تأتي الأرملة من القرية المقابلة برفقة أبيها أو غيره. تنفست أوران الصعداء لهذه الفكرة، كما لو أنزل حمل ثقيل من على كتفيها. وهكذا حلت أصعب مشكلة، وليس لأن أرملة ستأتي من القرية المقابلة فقط، بل لأن امرأة ستأتي بكل بساطة. فقد حلت أصعب مشكلة. أما بخصوص الأحفاد فهم

ثلاثة صبيان، أكبرهم كيزا كيتشي، وله من العمر ستة عشر عاماً، وأصغرهم صبيّة لم تبلغ بعد ثلاثة أعوام. ومنذ زمن بدأ تاي يتخلّى عن فكرة الزواج بدوره، لعدم وجود أية أرملة. فأمسى شارداً للذهن. حتى أن الجميع، فضلاً عن أوران، في القرية لاحظوا فقدانه للحياة تجاه كل شيء. أمّا الآن فإنه سوف يستعيد بشاشته! لقد تملك الحميّة أوران نفسها.

في المساء، عندما عاد تاي من الجبل وجلس على سطح الأرومة، صاحت به أوران من الخلف وهي داخل البيت - وكأنها رشّته بالماء:

- هاي! ستأتي أرملة من القرية المقابلة! لم تترمل إلا قبل البارحة، لكن ما إن يمرّ اليوم التاسع والأربعون، يقولون بأنها ستأتي.

وعندما روت له أوران بأن الأرملة قد وُجدت، امتلأت كبرياء كما لو تعلق الأمر بالإعلان عن عمل باهر.

- هذا ممكن ... من القرية المقابلة ... إيه... ما عمرها؟

قفزت أوران إلى جانب تاي.

- اسمها تاما-يان^(١). عمرها خمسة وأربعون عاماً مثلك.

علّق تاي ضاحكاً:

- في هذا الوقت، يعد الأمر مناسباً جداً... ها، ها، ها!

هل كان تاي منزعجاً قليلاً؟ لا تبدو فرحته مساوية لفرحة أوران. هل تساوره فكرة أخرى غير الحصول على امرأة ثانية؟ تساءلت العجوز عن ذلك أيضاً بحاسة شمّها القديمة، لكنها أحست بالسعادة كما في حلم.

(١) يستعمل اللقب العائلي، في اللغة اليابانية، قبل الإسم الشخصي.

في ناراياما يقيم إله . وكلّ الذين ذهبوا إلى ناراياما شاهدوا الإله . ولذلك لايشك في الأمر أحد . وما داموا يقولون بوجود الإله حقاً ، فقد كانوا يقيمون له عيداً ويعتنون به أكثر من الإحتفالات الأخرى . حتّى لم يبق منها سوى عيد ناراياما ، فضلاً عن ذلك كان عيد ناراياما يصادف «البون» دائماً حتّى أن أغنية رقصة البون امتزجت بأغنية عيد ناراياما .

يمتد البون من اليوم الثالث عشر إلى اليوم السابع عشر من التقويم القمري ، وعيد ناراياما يكون ليلة البون؛ أي ليلة اليوم الثاني عشر من الشهر السابع . وفي هذا العيد ، بالإضافة إلى محاصيل بداية الخريف ، الكستناء البرّي ، العنب البرّي ، ثمار الشيتي والكايا^(١) ، والفطر الطازج المخمّر [الذي يستهلك في هذه المناسبة] يطبخ القوم الرزّ وهو أندر الأشياء على الإطلاق؛ وبعد تقطير «الدوبوروكو»^(٢) ، يستمتعون طيلة الليل . ويُطلق على الرزّ اسم «السيد الحاجي الأبيض»^(٣) . وهو يزرع في هذه القرية الفقيرة لكن المحصول لم يكن كبيراً . ونظراً لعدم وجود سهول في هذه الأرض الجبلية فإنّ الغذاء اليومي يتكوّن من ذرة بيضاء - «آوا» أو «هاي» - وذرة صفراء ومحاصيل أخرى تُسجنى بكثرة . أمّا الرزّ فلا يُؤكل إلا في عيد ناراياما أو في حالة مرض عضال .

تقول أغنية رقصة البون:

-
- (١) اسمان لنوعين برّيين من الأشجار المنتشرة كثيراً في اليابان .
 - (٢) الدوبوروكو: هو نبيذ الأرزّ قبل تنقيته وتصفيته . ووجود حبوب الأرزّ فيه يجعله قريباً من عصيدة ذات كحول .
 - (٣) الحاجي أو الحاجي (بجيم مصرية) نبتة جميلة تزهر في الخريف وأوراقها الوردية اللون ، قريبة من شكل حبوب الرز . وهذا ما يفسر تسمية الرزّ «الحاجي الأبيض» . إذ أن الأرزّ ، الغذاء الأساسي يكتسب طابعاً إلهياً في اليابان ولقب «السيد» دليل على التبرّج .

أَيُّ حُبِّتٍ فِي صَنِيعِ أَبِي
إِذَا ظَلَّ مَرِيضاً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نَطْبِخَ رُزّاً.

إنها أغنية تحذّر من البذخ. وتعني: إن الأب عندنا يأكل أرزاً
حالما يصاب بمرض بسيط، ولهذا السبب نسخر منه كما نسخر من داعر
أو من أحمق. وكانت هذه الأغنية تستخدم أيضاً في حالات مختلفة
كمثّل: إذ عندما يكون الطفل كسولاً، يغني له أهله أو إخوته:

أَيُّ حُبِّتٍ فِي صَنِيعِ أَخِي
إِذَا ظَلَّ مَرِيضاً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نَطْبِخَ رُزّاً.

وتُستخدم بمثابة توبيخ: لقد تعود على المتعة، وأي شخص
طريف يرفض تحمل الجهد إلى هذا الحدّ، ألا يكون قادراً على القول:
«إنه يريد أكل السيد الحاجي الأبيض، فاطبخوا لي»؟

وتُغني أيضاً عندما لا يطيع الأطفال أوامر والديهم أو عندما
يتجرأون على إسداء الرأي لأهلهم.

وفيما يتعلق بأغاني عيد ناراياما، فإن الأغنية التي تقول:

من ثمار الكستناء التي سقطت تبرز الأزهار

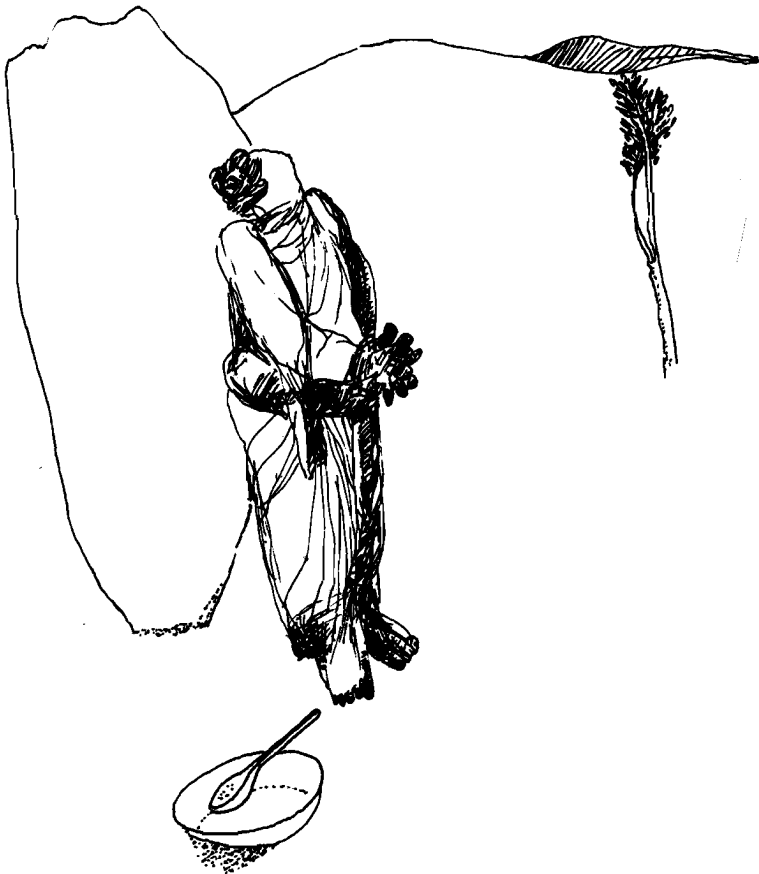
هي الأغنية الوحيدة، لكن سكان القرية حوّروها بمقاطع ساخرة
من اللحن نفسه، حتى صارت توجد أنواع مختلفة من الأغاني.

ولمّا كان بيت أو رن على حدود القرية، فقد أمسى طريق عبور
نحو الجبل الذي وراء القرية. وبعد شهر يحلّ عيد ناراياما. إذن فقد
ظهرت أغنية بدأ الجميع يرددونها حتى سمعتها أو رن.

أو توري-سان في بيت الملح حظّها سعيد

يوم ذهابها إلى الجبل سوف تثلج السماء

ولعبارة «الذهاب إلى الجبل» في القرية معنيان مختلفان تماماً. ورغم



النطق نفسه والتبيرة نفسها فإن الجميع يستطيعون التمييز بين المعنيين. فعند الحديث عن العمل يكون الصعود إلى الجبل للإحتطاب أو لصنع الفحم، ذهاباً إلى الجبل، أما المعنى الثاني فهو الذهاب إلى ناراياما. وقد جرى التقليد بالقول إن المرء إذا ذهب إلى ناراياما ونزلت الثلوج فإنَّ حظه سعيد، وفي بيت الملح لم يكن يوجد أحد باسم أو توري-سان، لكنه شخص وجد فعلاً منذ أجيال عديدة. ونظراً لكون الثلوج نزلت يوم ذهابه إلى ناراياما، فقد رددت الأغاني اسمه وتناقلته الأسطورة باعتباره الشخص النموذجي صاحب الحظ السعيد. ولم يكن الثلج في هذه القرية شيئاً نادراً. إذ عندما يحل الشتاء تنزل الثلوج من وقت لآخر على القرية نفسها، وعلى ذرى الجبال، فتكتسي بالثلوج البيضاء في الشتاء. أما بخصوص الشخص المدعو أو توري-سان فقد نزل الثلج عند بلوغه ناراياما. ذلك أن المرء إذا سار تحت الثلج يكون حظه سيئاً، ولكن في حالة «أو توري-سان» كان الأمر مثالياً. لذلك تتضمن الأغنية فضلاً عن ذلك معنى آخر: إذ يُفهم منها أن الذهاب إلى الجبل لا يكون في الصيف وينبغي حسب الإمكان الإلحاح على الذهاب في الشتاء. وهكذا فالقوم الذين يقصدون ناراياما من أجل الحج يجتارون وقتاً يوحى بسقوط الثلج. ويتعذر الذهاب إلى الجبل متى ما تكومت الثلوج. وناراياما حيث يسكن إله، هو جبل يقع في مكان بعيد ولا يمكن بلوغه إلا بعد اجتياز سبعة وديان وثلاثة مستنقعات. لا يمكن بلوغه إلا بعد السير في درب بلا ثلج، فإذا لم يبدأ الثلج بالنزول لدى وصولك، عندئذ لا يمكن القول إن حظك سعيد. وهذه الأغنية تصف إذن تفاصيل محدودة، أي: إذهب قبل أن ينزل الثلج.

منذ زمن طويل جهزت أو رن نفسها داخلياً كي تذهب إلى حج ناراياما. وكان ينبغي صنع الساكي^(١) من أجل مأدبة الرحيل،

(١) شراب كحولي ياباني يصنع من الأرز المخمر.

والبورية^(٢) من أجل الجلوس لدى وصولها إلى الجبل - لكن تلك البورية كانت جاهزة منذ أكثر من ثلاثة أشهر. بالإضافة إلى إيجاد امرأة ثانية لتأبي المترمل، وذلك يشكل جزءاً من التحضيرات التي كان ينبغي إتمامها. وما دام ساكي المأدبة والبورية ومسألة الكنة كلها قد انجزت، فإن ثمة شيئاً آخر يتوجب انجازه.

عندما تأكدت أوران أن لا أحد ينظر، تناولت حجر النار. فتحت فمها وضربت على أسنانها الأمامية من أسفل ومن أعلى بحجر النار، طاق طاق. وكانت تفكر أنها بذلك سوف تهشم أسنانها الصلبة كان ألم شديد يرنّ طن ، طن ، حتى تحت جمجمتها . لكنها حدثت نفسها بأنها اذا ما ثابتت على الضرب، سوف تسقط بعض أسنانها ذات يوم. وعندما فكرت في سقوط بعض أسنانها، تملكها الفرح. لذلك توصلت في آخر المطاف إلى الإحساس بآلم الصدمة وكأنه شعور بالسعادة.

كانت أسنان أوران ، في صحة جيدة رغم الشيخوخة. ومنذ شبابه كانت تعترّ بأسنانها وهي أسنان من الصلابة بحيث كانت تستطيع قضم بذور الذرة الصفراء اليابسة، وحتى بعد بلوغها الشيخوخة لم تسقط لها سنٌ واحدة، ولقد انتهى ذلك بأن أمسى يسبب الحياء بالنسبة لأوران. وفي حين فقدَ ابنها تاي عدداً كبيراً من أسنانه، فإن أسنانها التي تصطف كاملة يمكنها الإيجاء، بأنها، فيما يتعلق بالأكل، لا يمكن أن تجارى، بل يمكنها أن تلتهم كل شيء. وفي هذه القرية التي ينذر فيها الغذاء، يعدّ ذلك شيئاً مثيراً للحياء.

وعندما يقابل سكان القرية أوران:

— هاي! أسنان كهذه، لاتوحي بأنها ستسقط أبداً وحتى تفاح الصنوبر أو حبوب الضراط لن يتبقى منها في فمك شيء!

(٢) حصير منسوج من قصب.

ولايُقَال ذلك على سبيل المزاح. بل من أجل السخرية، وما يسمّى «حبوب الضراط» إنما هي الحبوب «قاطعة الثلج»، وهي حبوب صلبة كالحجارة عندما يأكل منها المرء يضطرب كثيراً. كذلك عندما يضطرب المرء بعد أكلها، يقول: «هه، ذلك لأنّي أكلت حبوب ضراط...» ويقصد القول بذلك أنها حبوب يابسة، سيئة، لكن اسمها المعتاد هو قاطعة الثلج أو الحبوب الصلبة. إن استخدام عبارة «حبوب الضراط» في حق أو رن التي لم تضرب طيلة حياتها أمام أيّ شخص، هو من دون شك من أجل السخرية منها. ولقد فهمت أو رن ذلك جيداً. إذ أنها سمعت الكثيرين يقولون لها ذلك. أن تهرم، وأكثر من ذلك، أن تبلغ السنّ الذي يتوجب معه الذهاب إلى حجّ ناراياما. ويسخرون منها بتلك الطريقة لأنّ أسنانها في صحة جيدة... «ولكن ذلك، بعد كل حساب، أمر مقدّر...» كانت تفكر.

وبمازحها حفيدها كيزا كيتشي، بدوره قائلاً:
 — أظنّ أنّ لجدّتي ثلاثاً وثلاثين سنّاً.

حتّى حفيدها يقول لها ذلك مضايقاً. عبثاً عدّت أو رن أسنانها لامسة إياها بإصبعها، عبثاً من فوق ومن تحت، ورغم ذلك لم تكن توجد سوى ثمان وعشرين.

— كفّ عن حماقاتك، هيا! لا توجد سوى ثمان وعشرين! كانت تجيبه.

— هاي! لاشك أنك لا تحيدين العدّ أكثر من ثمانية وعشرين.
 بالتأكيد هناك أكثر!

وهكذا كان يرهقها بملاحظات مزعجة. كان كيزا كيتشي يصرّ على أن لها ثلاثاً وثلاثين سنّاً. وفي العام الماضي، قال في الأغنية التي أنشدها في رقصة البون:

جمعت جدتي في زاوية غرفة ضيقة
ثلاثاً وثلاثين سنّ شيطان

وقهقه الجميع متدحرجين على الأرض. كانت تلك أغنية نظمها
كيزا كيتشي بتحويل أشهر أغنية هزلية في القرية:

جمعت أمنا في زاوية من الغرفة الضيقة
ثلاثاً وثلاثين شعرة من موضع خفي.

وهي أغنية تشتم الأمهات. غناها كيزا كيتشي مستبدلاً الكلمات
بـ«أسنان شيطان» وهكذا حصل على تصفيق حار. لذلك لا طعم
للأغنية بالنسبة له، إذا لم تُوجد فيها ثلاث وثلاثون سنّاً. وهكذا ذهب
ليروي للجميع أن لأورن ثلاثاً وثلاثين سنّاً.

عندما جاءت أو رن إلى القرية لتتزوج، قال الجميع بأنها أجمل
امرأة في القرية، وبعد موت زوجها لم يتمكن أحد من نشر شائعات
مغرضة ضدها كما هو شأن بعض الأرامل الأخريات. لذلك لم تفكر
بأنهم سوف يتحكمون عليها ذات يوم بسبب أسنانها. وعلى كل حال،
ينبغي فتح ثغرة في تلك الأسنان بأية وسيلة كانت، قبل الذهاب إلى
حج ناراياما، فكرت أو رن. عندما تذهب إلى ناراياما وتقعّد
على لوح معلق إلى ظهر تايي، ينبغي أن تكون عجوزاً تنقصها أسنان.
ولهذا كانت تحاول كسرهما ضرباً بحجر النار، خلسة، كي تتلّم.

قرب بيت أو رن يوجد بيت آخر يدعى «بيت الفلس». وفي
القرية لا حاجة لاستعمال الفلوس بأية طريقة كانت، ولا توجد فلوس
عند أية عائلة. لكن بيت الفلس، ذهب أهله ذات مرّة إلى اتشيغو^(١)
وأثوا معهم بفلس تامبو^(٢). ومن يومها أطلق عليهم اسم «بيت

(١) اسم مقاطعة تمتدّ شمالي شينشو.

(٢) تامبو: عهد ملكي يمتد من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٤، سكّت فيه تلك النقود.

الفلس». ولقد بلغ رب بيت الفلس، العجوز المدعو ماتا-يان سبعين عاماً هذه السنة. وفضلاً عن كونه جاراً أو رن وله العمر نفسه تقريباً، فقد كانا صديقين منذ زمن طويل. وفي حين بدأت أو رن منذ أعوام تهتم باليوم الذي ستذهب فيه إلى الجبل، فإن أصحاب بيت الفلس، كانوا أسَمَنَ مَنْ في القرية، ويبدو أنهم وجدوا التجهيزات الخاصة بمأدبة يوم الرحيل إلى الجبل غالية جداً، فلم يجهزوا لهذا الرحيل شيئاً. ولقد سرت شائعات بأن الشيخ سيذهب قبل ربيع هذا العام، لكن ها إنَّ الصيف قد أقبل. وكان من المفترض أن يذهب هذا الشتاء، لكن يُقال إنه سوف يذهب خفية على الأرجح. غير أن أو رن فهمته بوضوح، ذلك أن ماتا-يان نفسه يزرع تحت التأثيرات السيئة^(١) وليس متهيئاً للذهاب إلى الجبل. «الأحمق!» فكُرت. أما هي فقد نوت الذهاب حالما يقبل العام الجديد وتبلغ السبعين.

ويوجد إلى جانب بيت الفلس بيت آخر يدعى «الصنوبرة المتكلسة». وخلف البيت توجد صنوبرة كبيرة يابسة صار جذعها يبدو وكأنه صخرة. وكانت الصاعقة قد نزلت منذ زمن بعيد على تلك الصنوبرة الضخمة ومن يومها صارت تُدعى «الصنوبرة المتكلسة».

وإلى جانب ذلك البيت، يوجد البيت المُسمى «بيت المطر» في الجنب الشرقي بالنسبة للقرية، يوجد جبل تاتسو مياما، «جبل الجنب الشرقي». وعندما يذهب سكان ذلك البيت إلى ذلك الجبل، لا بدّ أنها ستمطر، يقولون. ويؤكدون بأن فردين من تلك العائلة وجدوا قديماً ثعباناً له رأسان فقتلاه. ومنذ ذلك اليوم صارت السماء تمطر كلما

(١) تعبير بودي يذكر بأن كل الأشياء في هذا العالم تنجم عن أعمال أنجزت سابقاً. وبخل ماتا-يان المثير للرتاء - وهو بخل وراثي مرموز إليه بالفلس المذكور - هو في آن: نتيجة لأسباب سيئة، ومصدر، في المستقبل، لتأثيرات سيئة.

ذهب أحد أفراد تلك العائلة إلى تاتسومياما، ولذلك أطلق عليهم الناس اسم «بيت المطر».

وإلى جانبه أيضاً يوجد البيت الذي يُسمى كايا نوكي^(١)، وتحتفل به الأغنية. تشمل القرية إجمالاً إثنين وعشرين بيتاً، لكن أكبر الأشجار في القرية هي تلك الكايا نوكي.

جين - يان الكايا نوكي امرأة عاهرة
بعد الإبن والحفيد حملت بين ذراعيها الدرّص^(٢).

في الزمن الذي جاءت فيه أو رن كَنَّة، كانت عجوز اسمها جين - يان لاتزال على قيد الحياة. وكانت جين-يان بهيمة حافظت الأغنية على صيتها السيء كعاهرة. والدرّص هو ابن الحفيد وفي ذلك إشارة إلى إنجاب كثير من الأطفال مثل فأرة. وفي هذه القرية التي ينقصها الغذاء كثيراً تُعدّ رؤية الأحفاد أمراً مثيراً للسخرية، كعلامة على أن أشخاصاً قد تعاقبوا بولادات عديدة أو بكهولة مبكرة، طيلة ثلاثة أجيال. أما جين-يان فقد انجبت أطفالاً، وربّت أحفاداً وحضنت أبناء الأحفاد، لذلك لحق بها العار كأمراة لم تهب الحياة إلا لأبناء شهنئين. أما المقصود بعاهرة فهو المرأة التي لاتعجيد التصرف، المرأة غير المحتشمة.

عند بلوغ الشهر السابع لايحافظ أحد على هدوئه، فالعيد لايدوم سوى يوم واحد. لكن، نظراً لكونه لا يحلّ إلا مرّة واحدة في السنة فإنّ الشعور به يبدأ منذ بداية الشهر. وينتهي العيد بأن يصير في الغداة. كان تايي يجد نفسه مشغولاً بطريقة أو بأخرى. ويتملك الحماس الجميع. ولما كان كيزا كيتشي - ولا أحد يعلم إلى أين ذهب - لايجدي نفعاً، فقد أخذ تايي يذهب ويحيي بمفرده.

(١) نوع من «الطقسوس» أي أشجار الزينة.

(٢) ولد الفأرة.

وعندما كان يمرّ أمام بيت المطر، سمع في الداخل سيد البيت
ينشد أغنية أسنان الشيطان:

أورن-يان الأرومة في زاوية الحجرة الضيقة
جمعت ثلاثاً وثلاثين سنّ شيطان

«الذنيء!» فكّر تاي. هذه أول مرة يَسْمَعُ فيها مثل هذه
الأغنية. لقد نشرها كيزا كيتشي في السنة الماضية لكنها لم تبلغ آذان أو
رن أو تاي. وها إنهم يرددونها هذه السنة مع ذكر إسم أو رن
الأرومة.

دخل تاي بسرعة إلى بيت المطر. ولما كان سيّد البيت حينها في
المدخل، فقد ألقى تاي على الأرض المطروقة:

— هيه إذن، هل تريد المجيء إلى البيت؟ هل تريد أن تعدّ كم
ها من الأسنان، عجوزي؟

ولأنّ الجالس هناك هو تاي الصامت دائماً، زاماً شفّيته، فقد
كان الأمر مهدّداً بالخطر؛ أضاع سيد بيت المطر رشده.

— آه، هيا،! لم تكن نيتي هكذا... لم أفعل سوى تقليد ما
غناه كيزا-يان... يزعجني أن يذكر مثل هذا الشيء...

ولأوّل مرّة علم تاي أن كيزا كيتشي هو الذي أطلق هذه
الأغنية. وسبق له أن سمعه يقول «أظن أنّ لجدتي ثلاثاً وثلاثين سنّاً»
وهي عبارات بعثت فيه إحساساً مزعجاً، فأدرك الآن معناها. وحتى
كيزا كيتشي لم يتجرأ على الغناء هكذا أمام تاي وأورن.

قفز تاي، دون أن ينبس بكلمة، خارج بيت المطر. تناول حطبة
مدوّرة وجدها على حافة الطريق، وبحث في كلّ مكان: «هذا
الكيزا كيتشي الملعون، أين تراه اندس؟»

كان كيزا كيتشي يغني مع أربعة أطفال أو خمسة بجانب البيت الذي أمام المستنقع .

إنه عيد الجبل مرة في العام
عصابة رأس معقودة^(١) لناكل رزاً .

كانت الصنوبريات تقف مثل سياج، فلا يتمكن المرء من تمييز أي شيء ولكن تابي سمع صوت كيزا كيتشي مع الأطفال .
رفع الخطبة :

— كيزا! هل أسنان جدتك مثل أسنان شيطان؟ آه، أنت . . . !
بعد أن دلتك وربتِك كما أنت . . . آه، أنت! أنت! . . . !

وَتَبَّ تابي فسقطت منه قطعة الخطب . لكن كيزا كيتشي التفت بغتة، فسقط تابي على حجر . ولأنه اندفع بقوة، فقد تخذرت يده إلى حد الشعور بالألم .

وأخذ كيزا كيتشي الذي هرب مبتعداً قليلاً ينظر إليه ببرود .
التفت تابي نحوه :

— أيها الحقير! لن أعطيك ما تأكل! صاح به غاضباً .

إن عبارات مثل «لن أعطيك ما تأكل» أو «لا تأكل!» هي عبارات مستخدمة كثيراً . وتوجد عقوبة تتمثل فعلاً في منع الطعام، لكنها كلمات تستخدم أيضاً كشتائم .

حانت ساعة العشاء . وعندما جلس الجميع حول المائدة، دخل كيزا كيتشي وجلس إلى المائدة مع الآخرين . وألقى بنظرة على تابي فلم يلاحظ أي أثر من غضبه السابق، كان يبدو مكتئباً . كان تابي غير راغب في إثارة أغنية أسنان الشيطان أمام أو رن . ويريد الخوؤل

(١) أثناء العمل، يحمل العمال والفلاحون اليابانيون غالباً، منديلاً معقوداً بشكل حلزوني حول الرأس، وهو يدل على الشروع في العمل، مثل التشمير عن الذراعين .



دون أن تسمعها. وتغنى في داخله أن لا يثير كيزا كيتشي المشكلة.

أما كيزا كيتشي، بدوره، داخلياً:

«كم تملكه الغضب، بسبب القصة المتعلقة بأغنية الشيطان! لماذا تراه بلغ تلك الدرجة من الهيجان؟ هل الأمر يزعجه إلى ذلك الحد؟ إذن في المرة المقبلة عندما تكون لي أغنية سوف أغنيها له، وأكثر من مرة أيضاً!»

عندما فكّر في ذلك إزدادت جراته وحيويته. أبوه سيتزوج امرأة ثانية بعد قليل، وينبغي أن يعرف بأن كيزا كيتشي يعارض ذلك في أعماقه.

وفي هذه الأثناء، تزوّد الجميع بالأكل وشرعوا يأكلون. و«الأكل» مجرد طريقة في التعبير: لما كان الأمر يتعلق بكريات ذرة وخضار مغمّسة في سائل، فإنهم لم يكونوا يأكلون، بل يتمصّصون. كانت أوران تفكّر في شيء آخر مغاير تماماً.

— مازال الوقت مبكراً على مجيء الكنة من القرية المقابلة، لكنها ربّما جاءت بسبب العيد.

كانت أوران تحدس بمجيئها. وفكرت بأنها ربّما جاءت اليوم، لكنها لم تأت. ربّما جاءت غداً. رأت أوران أن تخبر الجميع بذلك.

— غداً ربّما جاءت الماما من القرية المقابلة.

أعلنت ذلك لأحفادها وكأنها تزفّ لهم خيراً ساراً.

تاي:

— لم يمرّ شهر بعد، لكن إذا جاءت قريباً، فلنّ يجيئها ذلك سوف يُسهّل على الجدّة إحضار الطعام، أعتقد..

كانت فرحته صدى لفرحة أوران.

عندئذ، تدخل كيزا كيتشي:

– انتظرا قليلاً، قال رافعاً يده. وكأنه يريد ردع فصاحة تايي،
ثم التفت ناحية أورن.

– لا حاجة لنا بمجيء الأم من القرية المقابلة، قال زاعقاً.

ثم التفت ثانية نحو تايي:

– لا حاجة بك إلى «تغيير الطنجرة» ما دمت أنا سأتزوج! قال

بنبرة متحدية. ثم خاطب أورن مجدداً:

– أمّا بالنسبة للطعام، إذا كان إعداده يزعجك، فسوف تعني

به زوجتي، إذن، ما عليك إلا أن تحرسي!

ذهلت أورن. وقذفت عودين كانا في يديها على وجه كيزا

كيتشي.

– أيها الغبي! لا تأكل! قالت موبخة.

عندئذ تكلم الحفيد الذي سيبلغ الثالثة عشرة قريباً وكأنه أراد

مناصرة أورن:

– كيزا كيتشي سيتزوج ماتسو-يان من البيت الذي أمام

المستنقع.

كشفت عن ذلك أمام الجميع لئربك كيزا كيتشي. وكان على

علم بأن كيزا كيتشي له علاقة جيدة بماتسو-يان التي تقطن البيت

«الذي أمام المستنقع».

صفع كيزا كيتشي أخاه.

– أحرص أيها الأحمق! قال غاضباً. وحدق فيه بنظرة شرسة.

ذهل تايي بدوره. لكنه عجز عن قول أي شيء. لم يسبق له أن

طرح مسألة زواج كيزا كيتشي. ففي القرية يتزوج الجميع متأخرين،

إلى حد أنه لم ير أحداً تزوج قبل سن العشرين. أحس بالإنسحاق

أمام معارضة كيزا كيتشي العنيدة.

تقول الأغنية:

حتى إذا انقضى ثلاثون عاماً فإنّ الأوان لم يفت
إذا ازدادت واحدة، يكلف مجيئها ضعفاً

هذا المقطع هو أغنية تنصح بالزواج المتأخر، أمّا عبارة «يكلف مجيئها ضعفاً» فإنها تعني أن القادمة الجديدة سوف تكلف حصتها كمية غذاء أخرى على الأقل. ولهذا السبب لم يفكر تاي ولا أورن في مسألة زواج كيزا كيتشي، حتى في الحلم.

يوجد مكان يتجمّع فيه خيط الماء القليل الذي ينساب إلى القرية، مكوناً ما يشبه المستنقع. والبيت الذي يقع أمامه يسمّى: «البيت الذي أمام المستنقع». وحتى أورن نفسها كانت تعرف جيداً ابنة ذلك البيت المدعوة ماتسو-يان.

ذات مرة غضبت أورن من كيزا كيتشي. لكنها سرعان ما تخلّصت من غضبها عندما أدركت أن ذلك، من جانبها، نتيجة خطأ في إدراك عجوز، تفهم الأشياء فهماً سيئاً. وأدركت الآن أن ماتسو-يان صارت امرأة مكتملة وأن كيزا كيتشي في سنّ الرشد. لقد غضبت من تلك الطريقة الفظة في كلامه، لكنها بدأت تفكّر لأول مرّة بأن لا عذر لها في عدم تكوين رؤية واضحة للأشياء من قبل.

أمّا كيزا كيتشي فقد غادر المائدة وذهب إلى مكان ما.

وفي الغد كان يوم العيد. ملأ الأطفال بطونهم بالسيد الحاجي الأبيض، وقصدوا مكان الإحتفال.

توجد في وسط القرية مساحة أرض مسطحة: ذلك هو مكان العيد. يبدأ الإحتفال في الليل، لكنّ الأطفال يتجمعون منذ الصباح. رقصوا رقصة البون في ساحة العيد. وتتمثل الرقصة ببساطة في تكوين دائرة والمشي مع ضرب ملعقتين من خشب ببعضها، يحملهما كل واحد باليدين. فالرقصة إذن هي مشيٌ دائري مع الغناء. ذهب

تأبي أيضاً في زيارة إلى مكان ما، فبقيت أوران وحدها في البيت.

حوالي منتصف النهار تبينت أوران أن امرأة كانت تجلس على سطح الأرومة التي أمام المنزل وتنظر إلى الجهة الأخرى. كانت قد وضعت بجانبها كيس السفر الممتلئ. وبدت كأنها تنتظر شخصاً ما. تساءلت أوران منذ البداية عما إذا كانت تلك المرأة هي الكنة التي ستأتي من القرية المجاورة. «لكن، لو كانت هي، لبدا عليها أنها تريد دخول المنزل» حدثت أوران نفسها دون أن تتأكد من أن تلك المرأة هي الكنة. يبدو على تلك المرأة أنها جلست لتستريح، بطريقة يمكن للمرء أن يظنها جاءت في زيارة أيضاً من القرية المقابلة، ل ترى عائلة ما بمناسبة العيد. لكن كيسها الممتلئ كثيراً لا يدل على أنها زائرة عادية. ازدادت حيرة أوران وعيل صبرها، فخرجت.

— من أين أنت يا ترى؟ هل جئت من أجل العيد؟

ردت المرأة بتساؤل مألوف:

— وهل هذا بيت تأبي-يان؟

«لاشك أنها الكنة» فكرت أوران،

— هل جئت من القرية المقابلة؟ هل أنت تاما-يان؟

— آه نعم، بالضبط! عندنا أيضاً عيد. لكن ما دمت ساجيء

إلى هنا، قال الجميع، لا بد أن تذهبي من أجل العيد. لذلك جئت اليوم.

جذبت أوران تاما-يان من كمها:

— هيه، حقاً! هيا، هيا، ألا تدخلي؟

ركضت أوران في كل اتجاه، وكأنها تطير في السماء، أتت

بالمائدة، ووضعت أطباق العيد الشهية.

— هيا، كلي! الآن، سأذهب للبحث عن تأبي.

وبعد تلك الكلمات قالت تاما-يان:

— بدل تناول الطعام الشهى في بيتنا، قال الجميع، أفضل أن
أتناوله عندما أصل إلى هنا. لذلك جئت هذا الصباح قبل الإفطار.
— هيا، هيا، كلي إذن، بلا تكليف.

حتى وإن لم تقل تاما-يان ذلك، فإن أو رن ما كانت لتتأثر لو
قالت إنها أكلت قبل المجيء، إذ أن أو رن توقعت قدمها منذ
البارحة. ولو أكلت تاما-يان قبل المجيء، فإن أو رن كانت ستقدم لها
الطعام أيضاً.

بدأت تاما-يان تتحدث وهي تأكل:

— ما دامت الجدة لطيفة، قال الجميع، عجلي بالذهاب، عجلي
بالذهاب...

كانت أو رن تنتظر بابتهاج إلى تاما-يان التي كانت تأكل
باستحسان.

— ذاك الذي جاء قبل أيام هو أخي. الجدة لطيفة، قال. لذلك
فكرت أنا أيضاً في المجيء بسرعة.

اقتربت أو رن من تاما-يان. «هذه الكنة شريفة. وليس كلامها
معسولاً» حدثت نفسها.

— كان عليك أن تحييي قبل الآن. فكرت أنك كنت ستجيين
البارحة.

وبعد أن قالت ذلك، اقتربت أكثر، لكنها تنبّهت إلى أن اقتربها
أكثر سوف يكشف عن أسنانها الصلبة. وضعت يدها على فمها
وأدخلت ذقنها.

— وكيف كنت تنتظرين فوق الأرومة؟ كان عليك أن تدخلي إلى
البيت.

ابتسمت تاما-يان:

— ذلك أي جئت وحدي. لست أدري، لكنني كنت مرتبكة
قليلاً... قال أخي إنه سوف يأتي معي، منذ مساء أمس، وهو

سكران بدوبوروكو العيد. ما دامت الجدة لطيفة، اذهبي بسرعة: منذ
البارحة لم يقل شيئاً غير ذلك...

فرحت أو رن بذلك المديح وأحسّت كأن جسدها يطفو فوق
الماء.

«آه! إنها كنة أفضل من الكنة المتوفاة، هذه التي جاءت!»
فكرت:

– لو علمتُ بذلك لجئتُ إلى بيتكم لمرافقتك.

قالت تاما-يان:

– لو جئتِ لكان ذلك أفضل. ولو تمّ ذلك لأعدتكَ أنا محمولة
فوق ظهري.

«هكذا، حدثت أو رن نفسها، كان من شأن هذه البنت أن
تجتاز الجبل وهي تحملي على ظهرها من القرية المقابلة!»

لكن أو رن لم تذهب لتأتي بتاما-يان من القرية المقابلة؛ لم يبلغ
بها الإهتمام ذلك الحدّ. وها هي ذي تشعر بالندم. كان من شأنها
أن تجتاز الجبل دون أن يحملها أحد، فكرت، لكن نية تاما-يان
الحسنة التي تمتت، كما قالت، حملها على ظهرها لتجتاز الجبل، جعلتها
تشعر بالسعادة إلى حدود الرغبة في الركوع أمام القادمة الجديدة. كان
ثمة شيء تريد أو رن أن تقوله بسرعة إلى تاما-يان. وهو أنها حالما
يأتي العام الجديد. سوف تحجّج إلى ناراياما. وعندما جاء ناقل البريد،
أخوها، كان ذلك هو أول موضوع حدثته عنه.

وبنظرة ألققتها اتّفاقاً، تبيّنت أن تاما-يان كانت تدلك ظهرها
بيدها.

لاشكّ أنّ شيئاً ممّا أكلت علقَ بحنجرتها. توجهت أو رن
خلف تاما-يان ودلكتها.

– كلي إذن بلا تسرع!

هل كان قول ذلك مناسباً أم لا؟ ترددت متسائلة إن كانت ستظهر بخيلة إذا قالته. وفكرت بأنه من الاحسن ألا تقول شيئاً، وتذهب للبحث عن تاي، فتمكن تاما-يان بعدها من الأكل وحدها دون إسراع.

أعلنت وهي تدلك ظهر تاما-يان:

— حالما يأتي العام الجديد سوف أذهب فوراً إلى الجبل.
كفّت عن التدليك وهي تعلن ذلك. وظلّت تاما-يان لحظة دون أن تقول شيئاً، ثم:

— آه! أخي أيضاً، قال ذلك. لكن فلتذهب دون تعجيل،

قال.

— مهلاً! إذا عجّل المرء بالذهاب، نال رضى السيد إليه

الجبل.

ثمّة شيء آخر كانت أو رن تريد التحدّث به فوراً إلى تاما-يان وضعت أمامها صحناً كان يوجد في وسط الطاولة. وهو صحن مملوء حتى الحافة بسمك الترويت المغلي. فكرت بأنها ينبغي أن تتحدّث عن هذه «الترويتات»

— هذه الترويتات، أنا التي اصطدتها كلها.

عندما تُجفّف الترويتة، وهي ملكة أسماك المياه الحلوة، تصير ألدّ أسماك الجبل. فعلّقت تاما-يان وقد بدا عليها عدم التصديق:

— هه؟ وهل تقدر الجدّة على صيد الترويت؟

— ها! تاي وكيزا كيتشي لا يقدران على ذلك البتّة. ولا أحد في

القرية يستطيع أن يصطاد بمقدار ما اصطاد أنا.

وأرادت أورن أن تعلّم تاما-يان سرّ صيد الترويت، وهي

الموهبة الوحيدة الخاصة بها، قبل الذهاب إلى الجبل.

تركت بريقاً يمرّ في عينيها:

— أنا، نعم، أعرف المكان الذي يوجد فيه الترويت. وهو أمر

لا ينبغي البوح به لأحد. سوف أعلمك فيما بعد. نذهب في الليل وهناك في حفرة، إذا وضعنا اليد، من المؤكد أننا سوف نجده وهو أمر لا ينبغي البوح به لأحد.

أذنت أو رن صحن الترويت وكأنها ستضعه تحت أنف

تاما-يان:

— أشياء بسيطة مثل هذه، يمكنك أن تأكلها كلها. هيا، كلي!
يوجد منها الكثير، مجففاً.

وبعد ذلك، قالت وهي تقف:

— سأذهب للبحث عن تاي، تابعي الأكل إذن!

قالت ذلك وخرجت من الباب الخلفي. ثم دخلت إلى المخزن. كانت في منتهى الفرح لأن تاما-يان قالت عنها إنها لطيفة، فاستدعت أكبر شجاعة وأكبر قوة في حياتها، اغمضت عينيها و... طق! بأسنانها! على ركن الجدار الحجري.

تحدّر فمها حتى ظنّته طار. بعد ذلك، وكان فمها صار حاراً من الداخل، أحسّت بمذاق حلو قليلاً. خُيّل إليها أنّ أسناناً عديدة تتدحرج في فمها. ضغطت الدم السائل من فكّها بيدها وذهبت نحو الساقية، حيث تمضمضت. خرجت سنان مهشمتان من فمها.

— كيف؟ اثنتان فقط؟

أحست بالخيبة. لكن، بما أنها فقدت سنّين أماميتين متجاورتين، من أعلى، فقد أمسى فمها كأنه فارغ، وفكرت بأنها نجحت في مهمتها. وفي اللحظة نفسها كان كيزاكيثشي سكران تماماً من دوبروكو السيد الحاجي الأبيض، ويغني في ساحة العيد أغنية أسنان الشيطان. أمّا أو رن فقد تحلّصت من بعض الأسنان، لكنها في الوقت نفسه جرحت نفسها في موضع ما من فمها. وكان الدم يسيل بمذاق حلو قليلاً داخل فمها، بغزارة.

— فليتوقف! فليتوقف! ألحّت، وغرفت بيدها من ماء الجدول لتغسل فيها. لكن الدم لم يتوقف. وكانت تشعر بالسعادة وكأنها أمت بنجاح قضية هامة، بكسر سنين أماميتين. لم تنقطع عن ضرب فمها بحجر النار: لاشك أنّ في ذلك سبب انكسارها فعلاً.

«لم يكن الضرب بحجر النار من دون طائل» حدّثت نفسها. ومن فرط شربها ولفظها للماء، وهي تكاد تغطس وجهها كله في الجدول، انتهى الدم بأن توقف. ظل فمها يؤلمها من الداخل قليلاً لكنها لم تكثرث. ورغبت في أن تطلع تاما-يان على حالة صفّ أسنانها السيئة، فعادت إلى البيت. كانت تاما-يان لاتزال تأكل. جلست أو رن أمامها:

— لاتسرع! كلي حتى البشم! سأذهب للبحث عن تاي فوراً.

ثمّ:

— أما أنا، فقد حان العام الذي أذهب فيه إلى الجبل. إن أسناني تالفة...

أذنت أو رن فكّها وهي تعض شفتها السفلى بأسنانها العليا، لكي لاتظهر سواها. «لقد أنجز كل شيء، هكذا» فكّرت وهي تكاد تطير في الهواء.

حدّثت نفسها بأنها سوف تظهر أسنانها في الطريق لسكان القرية أثناء ذهابها للبحث عن تاي. خرجت من البيت متوجهة إلى ساحة العيد. ومشت واثقة أنها تستطيع الآن أن ترفع كتفيها عالياً.

عندما وصلت إلى مكان الحفلة، كان كيزاكيثشي يقود عزف الموسيقى والجميع يغنون أغنية أسنان الشيطان، لاحت أو رن فاعرة فمها وقد عاد الدم المتخثر ليسيل من جديد. لم تنتبه أو رن للأغنية. وقولها انها كانت تبحث عن تاي، ما هو إلا ذريعة لتمكّن من إبراز صفّ أسنانها. ونظراً لكونها لم تكن تفكر إلا في ذلك، فإنها لم تنتبه للأغنية.

صاح الكبار والصغار المجتمعون في ساحة العيد عندما شاهدوا
فم أو رن: آه! وهربوا. وأصرت أو رن لدى رؤيتهم على عدم
إغلاق فمها. ولم تكتفِ بإظهار أسنانها العليا بل عضت بها على شفتها
السفلى رافعة ذقتها وكأنها تقول: «انظروا!» ولما كان الدم لا يزال يسيل
فقد صار وجهها، في نهاية المطاف، مربعاً. أما هي فلم تكن لتفهم
لماذا كان الجميع يهربون لدى رؤيتها:

— ها.. ها.. ها.. ها.. ها.. ها..!

تملكتها الرغبة في الضحك بلطف.
لقد توصلت أو رن إلى نتيجة معاكسة لما كانت تتوقعه من كسر
أسنانها. وحتى بعد انتهاء العيد، ظلت موضوعاً للسخرية.

— شيطانة بيت الأرومة العجوز، يقولون عنها مغتابين، وانتهت
بأن أمست شيطانة عجوزاً حقاً في أعين الصغار:

— لو عضتكَ، لن تتركك أبداً!

— سوف تلتهمك!

هذا ما صار يُقال عنها في النهاية. ويقال أيضاً للطفل الذي
لا يكف عن البكاء: «سأخذك إلى الأورن-يان!». وهكذا صاروا
يستخدمونها لإنهاء البكاء. وثمة أيضاً أطفال، إلتقوا أو رن في الطريق
مساءً، «هاه!» وهربوا وهم يصيحون. وأخيراً سمعت أو رن الأغنية
المشهورة. وعلمت أنهم يقولون عنها: شيطانة عجوز.

انتهى عيد ناراياما، وفوراً، رقصت أوراق الأشجار في الريح.
وعندما يشتد البرد، تكون بعض الأيام كأنها الشتاء. ظلّ تايي شارد
الذهن لا يتغير، رغم وجود الكثة.

ولم يمرّ شهر على وصول تاما-يان، حتىّ ازداد عدد أفراد
العائلة، بامرأة أخرى. ففي ذلك اليوم جلست ماتسو-يان «البيت

الذي أمام المستنقع»، على الأرومة ووقت الغداء جلست إلى مائدة أو رن وذوياً، وتناولت الغداء. كانت طريقة أكلها تدل على الرضى حقاً، وكأنه تعبير يريد القول هنا يوجد الفردوس على الأرض، كانت فرحة جداً وهي تأكل. وكانت تأكل كثيراً وبصمت، وهي جالسة إلى جانب كيزا كيتشي. وأثناء العشاء، أيضاً، جلس الإثنان جنباً إلى جنب. وَخَزَتْ ماتسو-يان خَدَيْ كيزا كيتشي بَعُوْدِي الأكل وتداعياً. ولم يظهر أيّ انزعاج على أو رن أو على الزوجين تاي. لم تفكر أو رن أن كيزا كيتشي بلغ هذا الحدّ من الرشد ولم تتمالك نفسها عن الإرتباك. وعندما حلّ الليل إنْدَسَتْ ماتسو-يان تحت لحاف كيزا كيتشي. وكانت أو رن قد لاحظت أثناء الغداء، بأن استدارة بطن ماتسو-يان لم تكن عادية. وتأكّدت أن الشيء يعود إلى أكثر من خمسة أشهر: هل يكون في السنة الجديدة؟ وحتىّ إذا جاء مبكراً فليس من المستحيل أن يكون في هذه السنة. تملّك القلق أو رن بشدة: إذا ولدت ماتسو-يان فإنّ أو رن سوف تشهد الدّرس.

وفي الغد، مكثت ماتسو-يان، بعد الإفطار، جالسة على الأرومة، ولم تدخل البيت إلا في وقت الغداء، وعندما انتهت من الأكل، عادت إلى الجلوس فوق الأرومة. وعند حلول المساء أمرتها تاما-يان:

— ماتسو-يان أشعلي النّار في الموقد.

لم تكن ماتسو-يان ماهرة في إذكاء النار، فامتلاً البيت دخاناً. وأخذت صغرى الأطفال تبكي وقد أزعجها الدخان، ملأ الدخان المكان بحيث اندفعت تاما-يان وأورن باتجاه الأرومة، وحتىّ ماتسو-يان نفسها، وهي التي كانت تشعل النار، خرجت وهي تفرك عينيها.

تاما-يان:

— إنها راشدة في شيء معين، أما فيما يتعلق بإذكاء النار فليست سوى نصف شغالة!

قالت ذلك وضحكت. تغلّبت أو رن على مضايقة الدخان وقصّدت الموقد ثم أطفأت النار ساكبة عليها الماء، ثم أشعلته من جديد فبدأ يتوهّج جيداً. رَمَت أو رن الأغصان التي ظلت غير مشتعلة في نار ماتسو-يان التي أطفأتها بالماء ثم قالت:

— لماذا وضعت حطب كياكي، هكذا؟ يا ماتسو-يان لا ينبغي وضع أشياء مثل هذه في النار أبداً. إذ يُقال، عن صواب، أن من يحرق خشب كياكي تؤلمه عيناه طيلة ثلاثة أعوام.
ثم تدمرت بصوت خفيض:

— بالنسبة لي، لا ضرر من تلف عيني، أما أنتم، إذا أصيبت عيونكم، فإن ذلك سوف يكون مزعجاً، أظن.
قالت تاما-يان:

— ما دامت ماتسو-يان لا تجيد إشعال النار، فلتهتمّ برعاية الصّغيرة على الأقل!

ووضعت لها الطفلة الصغيرة على ظهرها. فكانت تبكي بسبب تأثير الدخان. تناولت ماتسو-يان الصغيرة وأخذت تغني وهي تهزّ كتفها بعنف:

ستة جذور، ستة جذور، يا ستة جذور^(١)

ذهلت أو رن وتاما-يان. ذلك أن هذه الأغنية لا تنشد إلا في مناسبات خاصة. تنشد أثناء مرافقة الحجّاج إلى ناراياما أو أثناء رعاية طفل. لكن الأغنية أثناء رعاية الطفل هي «ستة جذور، ستة جذور» وتسمّى هدهدة الأطرش أو هدهدة الشيطان.

(١) الجذور الستة أو العروق الستة هي، في المصطلح البوذي، الخواص الست: العين، الأذن، الأنف، اللسان، الجسد والروح.



سته جذور، سته جذور، يا سته جذور
رعاية الطفل تبدو سهلة وهي ليست كذلك أبداً
على الكتفين هو ثقيل وعلى الظهر يصيح
آه! سته جذور، سته جذور، يا سته جذور

غنت ماتسو-يان. عادةً، عندما ينطق المرء كلمتي «سته جذور»،
يهز كتفيه ويجهد بتلك الهزهة القوية كي يسكت الصوت الصارخ.
وتترافق الهزهة بصوت أقوى من الصوت الصارخ، بحيث يغطي
ذلك الصوت. أما طريقة الهزّ فهي بالأحرى طريقة عنيفة، تجعل
الطفل الذي على الظهر لا يقدر على فتح فمه. وتتم الحركة من الكتف
اليمنى إلى الكتف اليسرى بطريقة تحدث صدمات، طق، طق! أما
الذين يرافقون مهددة الأطرش هذه، ساعة حجّهم إلى ناراياما فهم
أولئك الناس الذين لم تتحسن طباعهم كثيراً أو الذين يرزحون تحت
«التأثيرات السيئة»، عندما يصرخون ويرفضون التقدم، فيغنيّ
مرافقوهم هذه الأغنية. وبما أنّ ماتسو-يان لا تعرف، فقد كانت تغنيّ:
«سته جذور، سته جذور»، فقط، وفي الحقيقة ينبغي ترديد: «لنظهر
الجذور الستة» مرتين، بمثابة لازمة في الأغنية. ومعناها أن تطهير
الجسد والروح، يلغي التأثيرات السيئة القديمة وثمارها. وتختلف أغنية
رقصة «البون» عن أغنية مهددة الأطرش، في الأصل، من حيث
اللحن والكلمات لكنها يغنيان الآن باللحن نفسه. وكلتاها من أغاني
ناراياما.

ولما كانت ماتسو-يان تغني وهي تهزحز الطفلة على ظهرها فقد
أخذت الصغيرة تصيح بحدة متزايدة، كما لو أشتعلت فيها النار.
فهزتها ماتسو-يان بعنف أشد، وأنشدت هذه الأغنية:

سته جذور، سته جذور، يا سته جذور
إنهقي أيتها الطفلة القذرة الحمقاء
سوف أعطيك شيئاً طيباً
أذناي متجمدتان وأنا لا أسمعك
آه! سته جذور، سته جذور، يا سته جذور

«انهقي!» أي «اصرخي!» وهذا يعني: «لتصرخ ما شئت سوف
أعطيها شيئاً طيباً، هذه الطفلة الحمقاء.» لكن، في هدهدة الأطرش
لعبارات «أعطيك شيئاً طيباً» معنى: قَرُصُ الطفل على الظهر. إنها
أغنية تقول: يمكنك أن تبكي ما طاب لك البكاء، فذلك لا يزعجني.
وما دامت أذناي متجمدتين، فأنا لا أسمع.

لم يسبق لأورن، حتى هذا العمر وأثناء حمل طفل على ظهرها
أن غنت ولو مرة واحدة هدهدة الأطرش. أما ماتسو-يان التي لم تأت
إلى البيت إلاّ البارحة، فهي امرأة مجردة من الإنسانية إلى درجة أنها
غنت تلك الأغنية اليوم. فهمت أورن ذلك. وظلت هي وتاما-يان
مذهولتين.

أخذت الطفلة تصيح أكثر فأكثر على ظهر ماتسو-يان. لم تتحمل
تاما-يان ذلك المشهد فأسرعت وتناولت الطفلة. لكن الأخيرة لم
تتوقف عن البكاء وكأنّ النار وراءها. «وإذا...؟» تساءلت تاما-يان.
اقتربت من أورن والطفلة في حضنها؛ نزعتا ثيابها وتفحصتا

مؤخرتها. وعلى المؤخرة كانت توجد آثار قرص في أربعة مواضع، كانت تشكل ما يشبه بقعاً زرقاء. نظرت أورن وتاما-يان الواحدة إلى الأخرى في دهول.

منذ مجيء ماتسو-يان، صار كيزا كيتشي أكثر هدوءاً، ولم يخاطب أورن بشيء فظ. أما ما قاله لها في ذلك اليوم فهو مغاير تماماً:

– متى ستذهبن إلى الجبل يا جدتي؟

سألها وقت الغداء.

– سأذهب حالما يقبل العام الجديد.

وبما أنه كرر السؤال عدّة مرات، فقد انتهت أورن بأن ابتسمت ابتسامة مرّة.

كيزا كيتشي بنبرة سريعة:

– في أسرع وقت ممكن أفضل، في أسرع وقت...

وهذه المرّة، تاما-يان:

– في أبطأ وقت ممكن، أفضل، في أبطأ وقت...

تلوّت من الضحك وهي تقلّد طريقة كلام كيزا كيتشي. والحقيقة ان الطريقة التي تكلمت بها تاما-يان كانت مضحكة جداً، ذلك أنها تكلمت بعد كيزا كيتشي مباشرة وبنبرة سريعة مثله. أخذت أورن تضحك معها.

ولما ازداد عدد أفراد العائلة بامراتين، لم تعد أورن النشطة لتعرف ما تفعل بيديها. كانت البطالة تشعرها بنقص يصل إلى حدّ الكآبة. ثمة لحظات تكون فيها ماتسو-يان نفسها صالحة لشيء ما؛ وثمة لحظات تشعر فيها أورن بالقلق في وقت فراغها. لكن بالنسبة لأورن يوجد دائماً هذا الهدف: الذهاب إلى حج ناراياما. لاشيء مرسوماً في قلبها سوى الأشياء المتعلقة بذلك اليوم. وكانت تفكر: لقد وصفوني بالشيطانة العجوز، لكن عندما تحين ساعة الذهاب إلى الجبل

سوف يكون هناك فرقٌ بيني وماتا-يان بيت الفلس! عندما أذهب إلى الجبل سوف أجهّز مآدبة مثل مآدبة العيد. لقد احتطتُ للأمر، كي يتمكن الجميع في البيت من أكل السيد الحاجي الأبيض والفطر والترويت المجفف... حتىّ البشم. أما دوبروكو السيد الحاجي الأبيض الذي سيقدّم لسكان القرية، فقد تخمّرتُه - مع ترقيقه قليلاً، والحق يقال - وما جهزته لايقلّ عن «تو»^(١) لا أحد يتوهم ذلك الآن... يقيناً ما إن أذهب إلى الجبل، حتىّ يقفز الجميع في البيت على الأكل ويأكلون بلذّة، عندئذ سوف يذهلون ويقولون: «كلّ هذا... يا جدي!» وفي ذلك الوقت، أكون قد ذهبت إلى الجبل، جالسة على بوريّة جديدة، في حالة رويّة طاهرة.

لم تعد أورن تفكر إلا في الحج إلى ناراياما.

في غداة يومٍ عصفت فيه ريح شديدة طوال النهار وزوّبعت من أول الليل إلى آخره، ارتفع في الفجر، بغتة، صوت يصرخ هذه الصرخة الغريبة:

- اعتراف بالذنب إلى السيد ناراياما!

بعد هذه الصرخة علا ضجيج سكان القرية هنا وهناك. وعندما سمعت أورن الصوت، إنسلت بسرعة من تحت اللحاف، وتشقّبت خارجة من البيت. ورغم شيخوختها فقد تناولت هراوة. ومن جانب آخر، خرجت تاما-يان تحمل الطفلة مربوطة إلى ظهرها كما اتفق. وما هي إلا برهة حتىّ تناولت بدورها هراوة.

صاحت أورن:

- أين هو؟

امتقت تاما-يان دون أن تجيب وكأنها لم تجد متسعا من الوقت

(١) كيل يعادل ثمانية عشر لتراً.

لتقول شيئاً، ثم أخذت تركض. وكان الجميع في البيت قد استيقظوا وخرجوا.

كان اللص هو صاحب بيت المطر. وكان قد تسلل خلسة إلى البيت المجاور، «الصنوبرة المتكلسة»، وبينما هو يسرق أكياساً من حبوب الجلبان، تلقى سيلاً من ضربات انهالت عليه من أهل «الصنوبرة المتكلسة».

تعدّ سرقة الغذاء في القرية من صنيع الإنسان الدنيء. وعلى الأخير أن يخضع إلى ما يطلق عليه «اعتراف بالذنب إلى السيد ناراياما» وهي أشد العقوبات قسوة. وتتمثل في الإستيلاء بالقوة على ما في بيت الجاني من غذاء، واقتسامه بين الجميع. وإذا سها الذين يذهبون للاستيلاء على قسم من الغذاء، فلم يتأهبوا للعراك والركض من دون أخطاء فإنهم لا يحصلون على شيء. ففي حالة مقاومة اللص، ينبغي اللجوء إلى الصراع والاندفاع بأسرع وقت ممكن. وهذه السرعة تتطلب من المرء بالضرورة أن يخرج حافياً. والذي يخرج بحذائه، يكون معرضاً للضرب بدوره. وهكذا فإن الأمر يتعلق بصراع عنيف حتى بالنسبة للذين يخرجون ركضاً. ذلك أن مصادرة الغذاء هي مسألة من الأهمية بحيث تجدها موسومة في عروق كل شخص.

بلغ الإنهاك بصاحب بيت المطر حدّاً لم تعد معه رجلاه وكليته قادرة على الحركة. وتمّ القبض عليه في بيت الصنوبرة المتكلسة، لكنه جمل على الأكتاف حتى ساحة العيد. وأجبر بقية أفراد عائلة بيت المطر على الجلوس قربه. فكانوا يزمجرون من دون أن يدركوا حتى ما يتوجب عليهم عمله. عندئذ تمّ ما يطلق عليه «تفتيش البيت» هجم رجال أفوياء على بيت المطر وألقوا بكل ما يحتويه من أطعمة، إلى الخارج، أمام واجهة البيت. وعندما شاهد الجميع ماتمّ القاذو خارج البيت، جحظت عيونهم من

الدهشة. كانت البطاطا تخرج بلا انقطاع من شرفة البيت حتى صار يوجد منها كومة مساحتها حوالي «تسويو»^(١) ولم يكن يوجد مبرر لأهل بيت المطر، حتى يجمعوا كل تلك الكمية من البطاطا. إذ ينبغي زرع بعض حبوب البطاطا من أجل الحصول عليها. ولما كانت بطاطا الزرع تؤكل بعد انتهاء الشتاء، فإنه لم يكن يبقى منها في كل البيوت، سوى القليل، بل إنها كثيراً ما تكون مفقودة حتى قبل انتهاء الشتاء. وفضلاً عن ذلك كان الجميع في القرية يعرفون الكمية التي أنتجها كل بيت، لذلك يُفترض أن أصحاب بيت المطر لم يجنوا عشر ما عندهم. ولاشك أن تلك الكومة من البطاطا هي ملك عائلات القرية كلها، وقد تم اقتلاعها وهي لاتزال في الحقول.

حصل الاعتراف بالذنب إلى السيد ناراياما خلال جيلين متعاقبين في بيت المطر. وأثناء الجيل السابق قيل إنهم أمضوا شتاء وهم يقتاتون بجذور برية ولكنهم ما داموا قد قضوا الشتاء بشكل جيد، فلا شك أنهم كانوا يخفون غذاء في مكان ما، في مكان ما من الجبل، قيل في ذلك الوقت.

— في بيت المطر ثمة سلالة، سلالة لصوص، وإذا لم نَجْتَنِّ أدنياء تلك العائلة من الجذور، لن نتمكن من النوم براحة بال، حتى في الليل! كان القوم يتهامسون.

تضم عائلة بيت المطر اثني عشر فرداً.

وفي ذلك اليوم لم يعمل أحد طيلة النهار. كان سكان القرية جميعهم مهتاجين وغير قادرين على استعادة الهدوء.

وعند أو رن أيضاً كان الجميع شاردي البال. وكان تايي ممدد الساقين يمسك برأسه بين راحتيه وهو يتحدث نفسه:

(١) التسويو: يتجاوز ثلاثة أمتار مربعة.

«وهذا الشتاء أيضاً، هل يمكن الخروج من الورطة؟»

لم تكن حكاية بيت المطر حكاية الآخرين فقط. ففي بيت تاي أيضاً هناك عوز شديد. وقد جعلته حادثة بيت المطر ينتبه إلى الأمر الواقع. الغذاء غير كاف ولا يمكن اللجوء إلى السرقة مهما حصل. في بيت المطر إثنا عشر شخصاً، وفي بيت تاي ثمانية. لكن الأكلة الشريهين كثر والعوز هو نفسه الذي في بيت المطر.

كانت أو رن جالسة حذو تاي. الشتاء موضوع قلق من دون شك. ومعاناة مرور الشتاء هي معاناة كل عام، لكن في هذا العام، كبر الأطفال، فضلاً عن ازدياد عدد أفراد العائلة. لذلك سوف يكون الخلاص أسمى من الشتاءات العادية، فكّرت. ثم إن ماتسو-يان مزعجة بشكل خاص.

قالت أو رن عن ماتسو-يان:

— لم تأت لتكون زوجة كيزاكيشي فقط. فالطريقة التي تأكل بها توحى لي بأنها جاءت إلى هنا مطرودة من عائلتها.

أحسّت أو رن أن الحقيقة لا تختلف عن ذلك. ليست ماتسو-يان إلا امرأة لكنها تستهلك كمية ضخمة من الطعام. وفوق ذلك، فهي لا تبدي أي قلق تجاه موضوع المواد الغذائية. ذات يوم بينما كانوا يطبخون الجلبان، أعلنت ماتسو-يان:

— يقال إن الجلبان المطبوخ كلما أكل منه المرء لا ينتهي!

وما إن قالت ذلك حتى انكبّت على الطعام تأكل منه بسرعة. عندئذ تضايقت أو رن وتاما-يان كثيراً. لكن ما هم ماتسو-يان؟ كانت تريد القول: «لنطبخه مع إضافة كمية كبيرة من الماء.»

عندئذ قال تاي بدوره:

— إذا كان الجلبان لا ينتهي كلما أكل منه المرء، أظن أنه سوف

ينتهي حتى إذا لم تأكل منه البتة.

ورغم هذه السخرية لم يبدُ على ماتسو-يان أنها فهمت شيئاً:
— إيه...! حقاً...؟ قالت بسلامة نية.

تايي:

— كيزا كيتشي! اصفع ماتسو-يان!
وإثر هذه الكلمات توقفت ماتسو-يان عن أكل الجلبان.
كان تايي، وكذلك أو رن، يفكران في الشتاء وكانت تاما-يان
تفكر في الموضوع نفسه.

«طريقة الأكل في بيتنا همجية جداً! إذا لم نفعل شيئاً لضمان
القوت، وإن كان ذلك بتحديد حصة لكل يوم...»

قال كيزا كيتشي:

— اليوم أنجزنا عملاً ناجحاً!
تكلم بنبرة ملؤها الإدعاء.

لاشك أن عمل الصباح كان قضية هامة وهو الذي أسرع وسط
الضوضاء قبل جميع من في المنزل، فضلاً عن كونه كان من المشاركين
في تفتيش البيت فعاد بحصة كبيرة من البطاطا التي تم توزيعها.

كانت ماتسو-يان أيضاً جالسة هناك. وكانت، يبطنها المنتفخ
الناقء إلى الامام، تشبه ضفدعة. لكنها اليوم كانت متوترة.

قامت تاما-يان، وكأنها تذكّرت شيئاً، وذهبت إلى المخزن ثم
عادت برحى حجرية بين ذراعيها. وأخذت تطحن حبوب الجلبان التي
تحولت، في ضجة طاحونة صغيرة، إلى دقيق أصفر، سرعان ما
طفحت به الرّحى. وعندما شاهد كيزا كيتشي ذلك بدأ ينشد:

إذ أكلت جلباناً دعه يبرد

أبي أعمى ولن يرى شيئاً

«دعه يبرد» تعني: انقع في ماء بارد. وهي أغنية تشير إلى أن

حبوب الجلبان المحمصة أو النيئة تحدث صوتاً عندما يقضضها المرء،
فيتنبه أهله العميان إلى أنه يأكل منها. لذلك توضع في الماء كي تلين
قبل أكلها، خفية. أما «الأهل العميان» فلا تعني بالضرورة أنهم
لا يرون البتة، فالمقصود أنّ بإمكان الشباب الذين يجوعون أكثر من
الشيخ، أن ينتهزوا كون الشيخ لهم رؤية سيئة، ليأكلوا أكثر،
لكن، خفية حتى لا يعلم الكبار بذلك.

في هذه الأثناء دخل أحد أبناء بيت الفيلس قائلاً:

— إنه شيء فظيع!

وكان يقصد بقوله «إنه شيء فظيع» أن أحدهم قام بشيء
فظيع، أي قدر. وكان لا يزال مدهوشاً من الشيء الفظيع الذي فعله
صاحب بيت المطر.

— انظروا إلى هذه البطاطا، إنها جديدة كلها!

كان من الواضح أن البطاطا قد أُخْرِجَتْ من الأرض حديثاً.
— أنا، لم أستخرج كثيراً من تلك التي زرعتها، فكُنْتُ أقول
لنفسي: ذلك لأنها أُسْتُخْرِجَتْ في غيابي، قَسَمًا! وبالنسبة لي لا يتعلق
الأمر باقتسام بل باسترجاع ما كان لي. ثم ان ما نُبِش من حقلٍ هو
أكثر من ذلك!

كان تآبي يفكر بالشيء نفسه. كان يفكر بأن الكمية المأخوذة من
كل عائلة أكثر مما استلمته بعد القسمة.

ابن بيت الفيلس:

— إذا لم ننتقم لذلك، فإنّ أدياء بيت المطر سوف يأتون للسرقه
ليلاً، هذا مؤكد. إذا لم نفعّل شيئاً الآن، ينبغي ترك الوسادة عالية،
ولا يسعنا النوم، إذا لم نقضِ عليهم من الجذور...

تآبي:

— حتى إذا قضينا عليهم من الجذور فهُم إنا عشر...
إثر هذه الكلمات قال كيزا كيتشي مازحاً:

– ما أحقكم! يكفي أن نحفر حفرة سُلَّالِيَّة وندفنهم كلهم!

توقفت تاما-يان عن الطحن وقالت مازحة بدورها:

– أف! مثل ذلك الحشد، أين يمكن دفنه؟

ابن بيت الفيلس:

– ليست مسألة ضحك! لقد توقفوا عن العمل في كل البيوت

وهم يفكرون في ذلك!

ولما كان ابن بيت الفيلس يجتاز العتبة منزعجاً بعد تلفظه بتلك

الكلمات، كانت ثمة أصوات غريان تنعق، غاق، غاق... .

– عجباً! من فرط التحدُّث في أشياء من هذا النوع صارت

الغريان تنعق! قالت أورن. عندئذ التفت ابن بيت الفيلس:

– ربّما كان هناك دفن في المساء!

وخرج بعد ذلك. تُوجد المقبرة في الجبل الذي وراء القرية.

وحثّى في مثل هذه القرية التي ينقصها الطعام، عندما يموت أحد

الصغار في السنّ، تُقدّم على قبره قصعة طعام. وسرعان ما تأكله

الغريان. لذلك يقال إن الغريان تبتهج عندما يُدفن أحدٌ ما. ويقال

أيضاً ان للغريان حدساً غريباً يجعلها تتوقع عملية الدفن، فتنعق

مبتهجةً في مثل هذه الحالة: لذلك صار نعيها بمثابة إعلان عن ماتم.

سكت الجميع بعد خروج ابن بيت الفيلس. وما دام سكان القرية

متأهين للقتل، فإنّ أفراد بيت المطر قد يَحْتَفُونَ واحداً تلو الآخر منذ

الليلة. ولدى التفكير في ذلك شعر الجميع بالإنكماش قليلاً. وحتىّ

الرحى الحجرية التي كانت تديرها تاما-يان، بدأت ترسل صوتها

الذي يشبه صوت طاحونة صغيرة، بطريقة غريبة... .

قال تاي المتمدّد على الأرض، فجأة:

– أيتها الجلدة ستذهين إلى الجبل، في العام المقبل، أليس

كذلك؟

وعندما سمعته أو رن تنفّست الصعداء. لقد كان تاي مشغولاً
بتلك التدابير الروحية! فشعرت بالإطمئنان.

وما لبثت أن أجابت:

— سبق لجدتي في القرية المقابلة أن ذهبت إلى الجبل. وكذلك
ذهبت الحمأة في ذلك البيت إلى الجبل. وأنا، بدوري، يتوجب عليّ
ذلك!...

توقفت تاما-يان عن إدارة الرحي:

— لا حاجة بك إلى الذهاب. عندما يُولد الدّرص، سوف
أذهب لألقي به من منحدر، في الجبل الذي وراء القرية، وهكذا لن
تُهجى الجدّة بالأغاني كما حدث في بيت كايا نوكي. إذن لاتعذّبي
نفسك!

بعد ذلك قال كيزا كيتشي بفخر:

— ما أحقكم! أنا الذي سأتولّى رمية! لا حاجة إلى التعلّل
بالأعذار!

لا حاجة إلى التعلّل بالأعذار. أي: ليس صعباً.

ثم التفت ناحية ماتسو-يان، وأضاف:

— هه! قالوا بأنّي سأتولّى رمية!

عندئذ ماتسو-يان:

— هاه! حقاً، أنا أسأله!

وجه الجميع أنظارهم في آن واحد إلى بطن ماتسو-يان الممتلئ.
كانت رحي تاما-يان لاتكفّ عن إحداث ضجّتها التي تشبه
ضجّة طاحونة صغيرة. كانت تدويّ مثل زوبعة تهدر في البعيد.
وعندما سكت الجميع أخذ كيزا كيتشي يغنيّ بصوت قوي، وهو يجلس
متربّعاً وثيابه مرفوعة من الخلف:

أيها الأب الصّغير اخرج لترى الأشجار اليابسة وهي تتنفس

حان وقت الذهاب فضع اللّوح على ظهرك

في هذا الوقت صار كيزا كيتشي ماهراً في الأداء . وشهدت أوران على مهارته، لكن الأغنية التي ردها الآن كانت نشازاً . كانت تُغنى منذ القديم لكنها تشوشت باطراد «إنه لأمر مؤسف» فكرت أوران :

– كيزا! لا توجد أغنية هكذا. إنها «الجلبل يحترق والأشجار اليابسة تنتفش» علّمته .

– ها! لكن... الشيخ في بيت الفلس أنشدها هكذا.
– أيها الأحق! قديماً أشتعلت النار في الجلبل. وفي ذلك الوقت ذهب الجميع إلى الجلبل على ما يقال. إنها أغنية تتحدّث عن ذلك. ليس كذلك يا تايي؟
قالت ذلك ونظرت إلى تايي.

كان تايي ممدداً ووجهه باتجاه السقف، وعلى جبينه قطعة قماش، تنزل حتى عينيه. نظرت أوران جانبياً إلى وجه تايي. وفجأة تملكها شعور بالرأفة تجاهه. اجتياز الشتاء شيء منك، وفضلاً عن ذلك، فإنّ المرافقة إلى الحج صعبة أيضاً. قبل قليل قال تايي: «في العام المقبل ستذهبن إلى الجلبل، أليس كذلك؟»... ولم يكف عن الإهتمام حتى الآن. وعندما فكّرت في ذلك شعرت بالرأفة.

اقتربت أوران من تايي. رفعت الخرقه بلطف. بدت لها عينا تايي لامعتين بحيث تراجعت فوراً وابتعدت.
«عيناها لامعتان، هل كان يبكي أم ماذا؟ إذا كانت تنقصه الشجاعة فإن البداية سيئة!» فكرت.

«لننظر إليه جيداً، ما دامت عيناها مفتوحتين» .
وبلمحة منحنية، نظرت طويلاً في اتجاه عيني تايي.

توقف صوت الرحي. اندفعت تاما-يان إلى الخارج وذهبت



لتغسل وجهها في الجدول المقابل. منذ قليل توقفت تامايان عن إدارة
الرحى وذهبت لتغسل وجهها^(١).

«وهذه الأخرى، هل كانت تبكي أم، ماذا؟ ها إننا بدأنا بداية
سيئة! مع هذا النقص في الشجاعة... ينبغي على تاي أن يكون
أكثر صلابة، لقد بدأنا بداية سيئة، لا يوجد سوى ضعاف القوى!»

عاد كيزا كيتشي إلى الغناء:

الجبل يحترق والأشجار اليابسة تنتفش
حان وقت الذهاب فضع اللوح على ظهرك

هذه المرة كان أداؤه للأغنية صحيحاً. والمقطع الذي يقول
«الأشجار اليابسة تنتفش» يُردد بلحن يشبه الترتيل، وكان الأداء ممتازاً
بحيث كان يمكن البكاء، كما لدى سماع أغنية من أغاني نانيوا^(١)
وعندما كان ينتهي من إنشاد المقطع: «فضع اللوح على ظهرك»
علقت أوران مستحسنة:

— أوه! رائع!

وبعد ثلاثة أيام، ارتفع، في الليل، وقع خطى لأناس كثيرين
مرّوا أمام بيت أوران باتجاه الجبل الذي وراء القرية. وفي الغداة علم
سكان القرية أن عائلة بيت المطر كلها قد اختفت من المكان.
— لن يعود لهم ذكر من اليوم فصاعداً.
كان ذلك ما اتفق عليه في القرية ولم ينبس أحد بكلمة بعد
ذلك.

في الشهر الثاني عشر، كان الشتاء قاسياً. وبما أن الأمر يتعلق

(١) التكرار من المؤلف.

(١) نوع من الأغاني الميلودرامية.

بالتقويم القمري، فإن الدخول في البرد يبدأ في أواسط ذلك الشهر.
وجاء الوقت الذي يهيج فيه الأطفال صائحين:
— بدأت بامبا الثلج ترقص.

فقال أورن بزهو:

— من المحتمل أن تثلج عندما أذهب إلى الجبل!

وبامبا الثلج هي حشرات صغيرة بيضاء ترقص. ويقال إن تلك
الحشرات تذهب وتحيي راقصة قبل سقوط الثلج.

أما بطن ماتسو-يان فكان لا يترك مجالاً للشك بأن وقت الولادة
قد اقترب. وصارت حركاتها وتنفسها تجلب الإنباه.

قبل حلول العام الجديد بأربعة أيام، انتظرت أورن تاي حتى
استيقظ ثم جرّته إلى خارج البيت. ثم قالت له وفمها ملتصق بأذنه:
— سادعو هذا المساء كلّ الذين ذهبوا إلى الجبل. إذهب
لتعلمهم جميعاً.

قرّرت أورن الذهاب إلى حج ناراياما في الغداة. لذلك
أرادت أن تدعو الليلة أولئك الذين سبق لهم أن ذهبوا إلى الجبل،
وتقدم لهم «سايك» المأدبة.

— أظن أن الوقت لم يحن بعد. عليك أن تذهبي عندما يبدأ
العام الجديد.

وعندما أكدت له بأنها ستذهب غداً، ارتبك تاي. كان يفكر
بأنها ستذهب عند بلوغ السنة الجديدة.

أورن:

— هراء! حتى وإن لم يحن الوقت... فالتبكير أفضل. على كلّ
حال ينبغي أن يتم ذلك قبل ولادة الدّرص...
كان تاي قليل الحماس فلم يجّب. أورن:

— أسرع لتخبر الجميع . سوف يذهبون إلى الجبل . ويتغيّبون .
هذه الطريقة في الكلام جعلت تاي يطبع بدقة .
قالت له وهو يخرج :
— هل فهمت؟ إذا لم تخبرهم ، فسوف أذهب وحدي غداً إلى
الجبل!

في ذلك المساء اجتمع المدعوون في بيت أو رن . وفي العادة
يوزّع ليلة الذهاب إلى الجبل سايك الوليمة ، لكن المدعوين ينحسرون
تحديداً في الناس الذين سبق وأن زاروا الجبل . وهؤلاء يقدمون ، أثناء
تناولهم السايك ، تعاليم حول الأشياء الضرورية من أجل الذهاب إلى
الجبل : يقدمون توضيحات ويشرفون على أداء اليمين . وتقديم التعاليم
يخضع لطريقة تشبه القانون ، ويقدم كل شخص بدوره أحد التعاليم .
اجتمع في البيت سبعة رجال وامرأة . والمرأة كانت قد رافقت أحد
الحجاج في العام الماضي ، وهذا شيء نادر . فالعائلات التي لا تجد
مرافقا تضطر إلى طلب شخص من خارجها . وعندما تجده يكون عادة
من الرجال . أما أول من زار الجبل ، بين المدعوين إلى سايك
الوليمة ، فيدعى «أقدم الحجاج» وحقه في الكلام هو الأقوى .

كان يلعب ما يشبه دور القائد ويهتم بكل شيء من أجل
الجميع .

ولشرب السايك أيضاً ، يبدأ هو أولاً ، ثم يليه الآخرون حسب
أقدميتهم في زيارة الجبل . أما ضيف الليلة الذي يقوم بدور أقدم
الحجاج فهو رجل يُدعى «تيرو-يان الغضوب» . ولم يكن تيرو-يان نزقاً
— بل هو شخص هادئ تماماً ، في الخمسين من عمره — لكن قبل
عدّة أجيال ، كان يوجد في عائلة تيرو-يان شخص نزق ، سريع
الغضب . ولذلك ظل حتى الآن يدعى «الغضوب» . وليس ذلك اسماً
مستعاراً بل إنه أمسى مثل اللقب العائلي .

ورغم أن أو رن وتاي هما من أهل البيت، فقد كانا يتصدّران المجلس وأمامهما الضيوف، في القسم المنخفض من الغرفة. كانت أمام أو رن وتاي جرة كبيرة، وهي الجرة التي تحوي حوالي «تو» من دوبروكو السيد الحاجي الأبيض الذي خمرته أو رن من أجل هذه الليلة.

عدّل تيرو-يان، الملتفت نحو أو رن وتاي، جلسته أولاً، ثملقى السلام. إثر ذلك، وبعده مباشرة، حتى المدعوون الآخرون رؤوسهم معاً.

تيرو-يان مخاطباً تاي:

— حجّ الجبل شاق. نحن في غاية الإمتنان لجُهدك.

يتوجب على أو رن وتاي أن يلزما مكانيهما، من دون قول أي شيء.

وعندما انتهى تيرو-يان من كلامه، تناول الجرة وأدناها من فمه ثم شرب قدر ما استطاع في جرعات طويلة. ثم قدّم الجرة إلى التالي وهذا الأخير شرب قدر مستطاعه. ثم قدمها بدوره إلى الذي يليه. وعندما وصلت الجرة إلى الأخير وُضعت من جديد أمام تيرو-يان.

خاطب تيرو-يان أو رن بنبرة صوت يُشبهه صوت من يقرأ كتاباً:

— نحسب أنك سوف تحترمين قواعد حجّ الجبل، بلا أخطاء.

«إحداها: عندما تذهب إلى الجبل، لا تتكلم.»

وعندما انتهى من قول ذلك رفع الجرة إلى فمه وشرب جرعات طويلة، ثمناولها للتالي.

كانت أو رن وتاي يعرفان التعاليم التي كان الضيوف يقومون بتعليمها لها. وهي أشياء عرفها من الأحاديث اليومية، لكن العادة

جرت بسماعها هكذا بطريقة احتفالية، ونظراً لكون الأمر يتعلق بأداء اليمين أمام الضيوف فقد كانا يُنصتان باهتمام شديد.

بعد أن دارت الجرة مرةً أخرى، وُضعتُ أمام الشخص الذي يلي تيرو-يان. وبالنبرة نفسها التي استخدمها تيرو-يان منذ قليل، قال الثاني:

— نحسب أنك سوف تحترمين قواعد حجّ الجبل، بلا أخطاء. إحداها: «عندما تخرج من البيت، أخرج بحيث لا يراك أحد.»

عندما انتهى من الكلام، رفع الجرة إلى فمه وشرب جرعات طويلة. وبعد أن دارت الجرة، وُضعتُ أمام الثالث. وهذا الأخير بدوره، وبنبرة تيرو-يان نفسها منذ قليل:

— نحسب أنك سوف تحترمين قواعد حجّ الجبل، بلا أخطاء. إحداها: «عندما تحين ساعة الرجوع من الجبل، لا تلتفت إلى الخلف في أي حال من الأحوال.»

وعندما انتهى من الكلام، رفع الجرة إلى فمه وشرب جرعات طويلة. وبعد أن دارت الجرة، وُضعتُ أمام رابع المدعوين. كان احتفال اليمين قد انتهى مع الثالث، لكن الرابع دلّ على الطريق الذي ينبغي سلوكه للذهاب إلى ناراياما:

«فيما يتعلق بالطريق إلى ناراياما، هوذا: نلفّ حول سفح الجبل الخلفي، وبعد المرور تحت حيثراجي^(١) الجبل التالي نلفّ حول سفحه أيضاً. ثم نمر متسلقين منحدر الجبل الثالث وبعده نجد مستنقعاً. نلفّ ثلاث مرات على طول المستنقعات وعبر درجات من حجر نصعد إلى الجبل الرابع. عندما نبلغ ذروة هذا الأخير، يلوح من الجهة الثانية للوادي: السيد ناراياما. نتقدم والوادي إلى اليمين والجبل التالي

(١) اسم شجرة حرجية تشبه الزيتون.

على اليسار. ومن أجل الالتفاف حول الوادي ينبغي السير أربعة فراسخ ونصف الفرسخ. وأثناء المسير يلوح درب متعرج سبعة تعرجات. هذا المكان يدعى «الوديان السبعة». بعد اجتياز الوديان السبعة، يلوح، رأساً، طريق ناراياما. وفي ناراياما مهبا كان ثمة درب فليس يوجد درب. نصعد وسط أشجار السنديان، أعلى، ثم أعلى، وهناك، ينتظركم الإله.»

عندما فرغ من الكلام، دارت الجرة وأنجز كل شيء. بعد أن ينتهي تقديم التعاليم لاینبغی علی أحد أن یقول أي شيء. لهذا، ما عدا الأربعة الذين تلووا التعاليم، لا يستطيع أحد أن يضيف شيئاً. وفيما بعد، ومن دون النطق بأية كلمة، دارت الجرة وتمّ إنهاء شرب السايك، انسحب كل واحد، بعد أن شرب ما استطاع، في صمت وكأنه ينخسف. وبقي تيرو-يان الذي يتوجب عليه أن يكون آخر من يخرج. وعندما ذهب الجميع قام تيرو-يان بدوره من مقعده منادياً تاي بإشارة من يده، مرافقاً إياه خارج البيت.

وبصوت هامس قال:

— ولكن قل لي! إذا كان ذلك لا يعجبك فلا حاجة بك للذهاب إلى الجبل. وحتى إذا عدت من الوديان السبعة فلا بأس!

بعد ذلك . ورغم عدم وجود أي شخص، تفحص العتمة من جميع الجهات وقد بدا خائفاً.

«ما أغرب ما قاله» فكّر تاي. لكن بما أن أورن تريد إتمام ذلك من كل قلبها فإنه لم يتعلق بمثل هذه الحماسة، وطردها من ذهنه.

عندئذ قال تيرو-يان:

— أوه، هذا، أيضاً، شيء ي تعليمه دون أن يسمع به أحد. إذا قلته لك، لمجرد قوله... وانسحب بعد ذلك.



بعد أن غادر الجميع، التحق كل من أوران وتابي بفراسيهما.
لكن أوران لم تكن لتنام، لأنها ستذهب مساء الغد إلى الجبل.
في ساعة متأخرة من الليل، وقد تكون الثالثة صباحاً، سمعت
أوران شخصاً ما يتأوه في الخارج. كان ذلك صوت رجل يتألم. اقترب
الصوت أكثر فأكثر حتى وصل أمام بيت أوران.
عندئذ، وكما لو كان ذلك لتغطية الصوت المتأوه، ارتفعت أغنية
هدهدة الأطرش:

سته جذور، سته جذور، يا سته جذور
المرافقة تبدو سهلة وهي ليست كذلك أبداً
على الكتفين يكون الحمل ثقيلًا وشاقًا
آه! لنظهر الجذور الستة، لنظهر الجذور الستة

رفعت أوران رأسها خارج اللحاف وأرهفت سمعها. ف أدركت
أن ذلك الصوت النائح هو صوت ماتا-يان بيت الفليس.
«الأحمق!» فكرت مرة أخرى. وبعد قليل خيل إليها أن أقداماً
تقترب. ثم سمعت صوت أظافر تكشط باب البيت.
«ماذا عساه يكون؟»

نهضت وخرجت إلى الشرفة. فتحت مصراعاً من الناحية التي
كان يُسمع فيها صوت الأظافر. في الخارج كان القمر مضيئاً. وكان
ماتا-يان هناك، مقرصاً، نخباً الوجه، وهو يرجف بكل جسده.

في هذه اللحظة وصل أحدهم كالإعصار. كان ذلك ابن
ماتا-يان. وكان يحمل بيده حبلاً من قش وينظر بقسوة إلى ماتا-يان.

نادت أوران:

— تابي ! تابي!

فما كان من تابي، الذي لم يبدُ عليه أنه كان نائماً، بدوره، إلا

أن خرج فوراً. توجه نحو ابن بيت الفلس ورأى الجبل الذي بيد الأخير.

— ماذا يحدث إذن؟ سأل

— قطع الجبل بأسنانه وهرب!

كان الإبن لا يزال يرشق ماتا-يان بنظرة عدائية.

«الأحمق!» فكّر تاي، مرتاعاً من قسوة ابن بيت الفلس.

«الأحمق!» فكّرت أوران التي كانت تتأمل ماتا-يان في ذهول.

تقول أغنية معروفة منذ القدم:

خاضعاً كما هو لهددة الأطرش

انقطع الجبل، كذلك انقطعت الصلة^(١)

«رغم وجود مثل هذه الأغنية، فإن هذا الوضع حيث يهدد المرء إلى حدّ انقطاع الجبل، ويكون، فضلاً عن ذلك، قد قطعه بأسنانه، كل ذلك يتجاوز ما تقوله الأغنية» فكّرت أوران. وبلهجة توبيخ، أنذرت ماتا-يان:

— لا عذر لك ياماتا-يان في التوصل إلى هددة الأطرش! إذا

انقطعت الصلة، وأنت لاتزال في هذا العالم، بالسيد إله الجبل وكذلك

بابنك، ففي أي وضع ستجد نفسك!

علّمت أوران بسلامة طوية ما كانت تظنه حقاً.

(١) «الصلة»، ككلمة في المصطلح البوذي، تشير، بحصر المعنى، إلى العلاقة المبنية على الأفعال السابقة، والتي تربط كائنين أحدهما بالآخر. أما هنا فهي مستخدمة بمعنى الالتزامات المتبادلة. إن ماتا-يان لعدم التزامه بالسلوك الذي ينتظره منه ابنه وكذلك إله الجبل، سيقطع الصلات التي تربطه بهما. وهو بذلك يجازف بالخروج على كل القواعد فيلغظه غضب الإله والجماعة التي لا يوجد خارجها أي خلاص.

- يكفي إذن، لهذه الليلة! قال تاي للإبن، ثم حمل ماتا-يان على ظهره ونقله إلى بيت الفلس.

في الليلة التالية حثت أوران عزيمة تاي بعناد شديد، وتحذرت عن طريق الحج إلى ناراياما. وأثناء السهرة غسلت السيد الحاجي الأبيض الذي سيأكله الجميع غداً وأوضحت لتاما-يان كل ما يتعلق بالفطر وسمك الترويت. وبعد أن تأكدت من نوم الجميع في البيت، فتحت مصراع الشرفة الخلفية بلا ضجة. ومن هناك صعدت فوق لوح كان تاي يحمله معلقاً على ظهره. لم تكن الرياح تهب في تلك الليلة لكن الطقس كان بارداً. ولم يكن القمر مضيئاً أيضاً. أخذ تاي يسير خبط عشواء في الدرب المظلم. وما إن خرجت أوران وتاي حتى نهضت تاما-يان من تحت لحافها. فتحت المصراع وخرجت. تابعتها بالنظر سابرة أغوار الظلمة، وإحدى يديها مستندة على الأرومة.

دار تاي حول سفح الجبل الخلفي وبلغ شجرة الحيشيراجي. كانت الأغصان منتفشة مثل مظلة. وعندما مرت تحتها كان الظلام نحيفاً كما في بيت مظلم. حتى الآن كان تاي قد جاء إلى هذه الأماكن، لكن بعدها كان يوجد طريق يمنع عبوره تقليدياً إذا لم يكن ذلك للحج ناراياما. وكان الجميع يتحاشون المرور تحت الحيشيراجي ويسلكون دربا يتعرج إما إلى اليمين وإما إلى اليسار. لكنه اليوم سار رأساً. دار حول سفح الجبل الثاني أيضاً، ثم الجبل الثالث، فوجد المستنقع. صارت السماء بيضاء بغير وضوح، ولما انتهى من الالتفاف حول المستنقعات صارت السماء صافية وعمّ الضوء المكان. وجد درجات الحجارة الثلاث وبعدها لاح منحدر هاو. تسلق الجبل الرابع حتى ذروته. كان الجبل مرتفعاً جداً، وعند الإقتراب من الذروة، صار شديد الانحدار.

وعندما بلغ تاي القمة، جال ببصره. لاح له ناراياما قبلاً وكأنه كان ينتظر. وكان يفصل بين الجبل الذي بلغه وبين ناراياما وإد يجعل

المرء يتساءل عما إذا كان ينحدر حتى الجحيم . وللذهاب إلى ناراياما ينبغي النزول من القمة ببطء والسير في درب يشبه ممراً في ذروة جبل . على اليمين توجد هوة؛ وعلى اليسار منحدر جبل يرتفع عمودياً . ولما كان الوادي محاطاً بأربعة جبال، وعميقاً كقعر الجحيم، تقدم تابي وهو يطأ الدرب بحذر ورباطة جأش . لقد علموه بأن هناك فرسخين ونصفاً ينبغي قطعهما بالإلتفاف مع الوادي . لكنّه، وهو يقترب من ناراياما، لم يكن ليتنبه إلا لخطواته . وما إن رأى ناراياما حتى صار مثل خادم الإله الورع الذي يمكث هناك، وكان يسير مفكراً بأنه إنما يمشي بأمر من الإله . وهكذا بلغ مكان الأودية السبعة . رفع رأسه : ناراياما، أمام عينيه، يبدو وكأنه جالس . وبما أنهم قالوا له : بعد اجتياز الوديان السبعة ، مهما كان هناك درب، فإنه لا يوجد درب ، فقد أخذ يصعد إلى أعلى ، ودائماً إلى أعلى . أما بخصوص الأشجار فلم يكن يوجد سوى السنديان^(١) وعندما فكر تابي بأنه وصل أخيراً إلى ناراياما، قرّر بأنه لم يعد ثمة مجال للكلام . أما أو رن فإنها لم تنبس بكلمة منذ مغادرة البيت . وأثناء السير، كان تابي قد بدأ يحادثها لكنها لم تجبه قط . عبثاً صعد، ثم صعد، لا وجود إلا لشجر السنديان . وهكذا إلى أن بلغ موضعاً خاله القمّة . تجاوز صخرة كبيرة كانت توجد هناك، ها إن أحدهم تحت تلك الصخرة . ارتعد تابي وتراجع لا إرادياً . كان الرجل المستند إلى الصخرة وجسده متقلص، ميتاً . قبضتاه مشدودتان ويبدو كأنه يضم يديه . تسّمّر تابي في مكانه غير قادر على التقدّم . مدّت أو رن يدها، من وراء ظهره، وحركتها نحو الأمام . كانت تلك إشارة لتقول له : «تقدّم ! » تقدّم تابي . ومن جديد، هاهي ذي صخرة، وتحتها، عظام مبيضة . الساقان موجودتان، لكن الرأس كان مقلوباً، إذ أنه تدحرج جانباً، على الأرض . ظلت عظام الجانبين وحدها مستندة إلى الصخرة مثل الجثة السابقة . أما

(١) لنذكر بأن اسم ناراياما نفسه يعني «جبل السنديان» .

الذراعان فقد سقطتا بعيداً عن الجسد، وكل ذراع بعيدة عن الأخرى. كانت الجثة مبعثرة بحيث يمكن أن يتساءل المرء عما إذا كان أحدهم قد وضعها هكذا من باب المزاح. مدّت أو رن يدها وحركتها لتقول: «تقدّم، تقدّم!» من المؤكد أن ثمة جثة قرب كلّ صخرة. لكن أبعد من ذلك بقليل كانت توجد جثة تحت جذع شجرة، هذه المرّة. وكانت لميت حديث العهد، يبدو وكأنه مازال حياً. عندئذ ارتعد تابي من جديد وعجز عن التقدّم. ذلك أن الجثة التي أمامه قد تحرّكت. تفحص جيداً، تفحص الوجه جيداً: لاجمال للشك، هذا الشخص ليس حياً. «مع ذلك، فكر تابي، من المؤكد أنه كان قد تحرك!» وأحسّ بساقيه تتصلبان. عندئذ تحركت الجثة. لقد تحركت من جهة الصدر. كان هناك غراب. ولما كان لون اللباس داكناً فإن تابي لم ينتبه إلى وجود الغراب. ضرب بقدمه على الأرض في قوة لكن الغراب لم يهرب. تقدم تابي جانبياً. عندئذ طار الغراب. بسط جناحيه بهدوء وطار. إنه غراب ذو هدوء مقيت. إلتفت تابي صدفةً نحو الجثة. ها إن غراباً آخر على صدرها. «كان يوجد إثنان إذن؟» تساءل. عندئذ تحرك تحت ذلك الغراب رأسُ غرابٍ آخر. «هذه الجثة تمدّ ساقها (كرجل يستريح) لكن الغربان مزّقت بطنها واتخذت منه عشاءً لها». فكّر. وعندما فكر بأنه ربّما وُجد منها الكثير، تملّكه شعور بالحقد والرعب. كان المكان يبدو وكأنه ذروة الجبل. لكن الدرب كان لا يزال يصعد. وكلما صعد، ازداد عدد الغربان. وعندما يتقدم تابي خطوة، كانت الغربان تشرع في المشي بلا مبالاة، كما لو كانت الأرض تتحرك حوله كانت تمشي في صرير على الأوراق اليابسة، محدثةً وقعاً يشبه وقع خطى لبشر يمشون.

— ما أكثر الغربان في الجبل!

كان مرتاعاً لعددها. ولم تبدُ له الغربان مجرد طيور. كانت لها تعابير عيون ققط سوداء وحركات لامبالية تسبّب الضيق. ازداد عدد

الجثث المتمددة. وبعد تقدّمه قليلاً اكتشف مكاناً يشبه جبلاً أقرع، حيث لا توجد سوى صخور. وهناك، كانت العظام المبيضة كالثلج المتراكم، وكانت منتشرة على الأرض بحيث غدت أطرافها بيضاء. كان تاي يسير ولا ينظر إلّا تحته، محاولاً تفادي العظام، لكن عينيه اضطربتا، وكاد يترنح ويقع. فكّر: «لاشك أن بين هذه العظام المبيضة أناساً عرفتهم عندما كانوا أحياء». صدفةً، تدحرجت قصعة خشبية فراها. عندئذ توقف متحجراً من الدهشة.

— هذا أمر جدير بالعناية!

ظَلّ مفتوناً تماماً. هناك إنسان أتى بقصعة وهو يأتي إلى هنا! وعندما فكّر بأن من بين الذين جاؤوا سابقاً كان يوجد أشخاص على تلك الدرجة من التبصّر، أحسّ بنوع من الحزن، وهو الذي لم يأت بقصعة، كانت ثمة غريبان تتدحرج فوق صخرة وعيونها مدهولة، إلتقط تاي حجراً ورماها به، فرررر! طارت في لمحة بصر. وطارت تلك التي كانت قربه في الوقت نفسه.

— طريقة هروبها لا توحي بأنها تجرؤ على مهاجمة إنسان حيّ.

وعندما أدرك ذلك تنفس الصعداء. كان الدرب لا يزال يصعد قليلاً، وبعد خطوات كانت ثمة صخرة لا تستند عليها جثة، ولما بلغها تاي، ضربت أو رن على كتفه وحركت ساقها. وكان ذلك يعني أنها تطلب منه أن ينزلها من على اللوح المعلق إلى ظهره، حيث كانت تجلس. فأنزلها تاي. وما إن نزلت حتى فرشت في ظل الصخرة، حصير القصب، الذي كانت قد لفت به خاصرتها. ثم أرادت أن تعلق صرة صغيرة، كانت مربوطة إلى خصرها، في اللوح الذي كان تاي يحمله على ظهره. حملت تاي، ثم وضع الصرة فوق البورية غاضباً. تناولت أو رن من الصرة كرة من السيد الحاجي الأبيض ووضعتها على الحصير. ثم حاولت من جديد أن تعلق الصرة على

اللوح الذي يحمله تاي على ظهره. ابتعد تاي ساحباً اللوح معه وأعاد وضع الصرة فوق الحصير.

وقفت أو رن منتصبه فوق الحصير. قبضتُ يديها وضممتها إلى صدرها مُبعدةً مرفقيها أحدهما إلى يمين جسدها والثاني إلى يساره، ونظرها ثابت على الأرض بإصرار. أغلقت فمها، فبدا وجهها بلا حراك. وكانت قد تزنّرت بحبل. تأمل تاي في وجه تلك الأورن التي كان جسمها لأبيدي أدنى حركة. خيل إليه أنّ وجه أو رن قد اتخذ تعبيراً آخر يختلف عن تعبير وجهها لما كانت في البيت. لقد بدأت تظهر على وجهها علامات إمراة تموت.

مدّت أو رن يديها وأمسكت بيدي تاي. ثم جعلته يلتفت إلى الاتجاه الذي جاء منه. صار جسد تاي ملتهباً كما لو أنه دخل حمام ماءً حاراً، تلالأت عليه قطرات عرق كبيرة. واندفع بخار من رأسه.

ضغطت يدا أو رن بقوة على يدي تاي. ثم دفعته من ظهره بشدة.

أخذ تاي يمشي، محترماً عهد ذلك الجبل الذي يُمنع فيه الإلتفات إلى الورااء.

وبعد عشر خطوات، رفع تاي اللوح الذي ما عادت أو رن تجلس عليه، نحو السماء وأخذ ييكي بدموع حرّى، ثم عاد إلى النزول مترنحاً كرجل سكران. وبعد هبوطه قليلاً تعثر بجثة وتدحرج. وقعت يده على وجه جثة أخرى حيث كانت تلوح عظام رمادية اللون في فراغ اللحم المنزوع. وعندما همّ بالوقوف نظر إلى وجه تلك الجثة فتبين أنّ حبلاً كان يلتف حول عنقها الهزيل. وإثر ذلك المشهد، طأطأ تاي رأسه. «ما كنتُ لأبلغ تلك الشجاعة» دمدم قائلاً. عاد إلى نزول الجبل. وكان قد بلغ منتصف ناراياما عندما انعكس شيء ما في

عينيه. توقف ونظر أمامه. وسط أشجار السنديان غبار أبيض يتراقص. إنه ثلج.
- آه.!

تعجّب تاي. نظر إلى الثلج بلهفة. بدأ الثلج يُزوّع وينزل أشد كثافة. ها قد حدث ما أعلنت عنه أو رن بفخر:
«عندما أذهب إلى الجبل، لاشك أنها سوف تثلج!»

استدار تاي بإصرار وعاد إلى صعود الجبل. وهكذا تبخّر اليمين المتعلّق باحترام قوانين الجبل، في الريح. أراد تاي أن يُخبر أو رن بأن الثلج قد بدأ يتساقط. بل إنه بدل إخبارها بذلك، كان يريد التحدّث معها عنه: «لقد بدأ الثلج يتساقط! حقاً، الثلج يتساقط!» كان يرغب في أن يقول لها هذه الكلمات فقط. وتسلق تاي مثل قرد درب الجبل المحظور.

وعندما بلغ الصخرة التي توجد فيها أو رن، كان الثلج قد غطى الأرض تماماً بطبقة بيضاء. اختبأ وراء صخرة وأخذ يتفحص هيئة أو رن. لم تُرضِهِ عودته على أعقابه ونقضه لعهد الحجّ إلى الجبل، وها هو يتهيأ لنقض العهد الذي لاينبغي بمقتضاه النطق بأية كلمة. كان ذلك يشبه ارتكاب جريمة تماماً. ولكن، كما سبق وأن قالت بالضبط: «لاشك أنها سوف تثلج!»، ها إنها تثلج! هذا ما كان يريد قوله - تكفي كلمة واحدة.

أخرج تاي رأسه من وراء الصخرة بهدوء. وهناك، أمام عينيه، كانت أو رن جالسة. وقد احتمت من الثلج بتغطية رأسها من الخلف بالحصير، لكن الثلج تراكم على القسم الأمامي من شعرها وعلى صدرها وركبتيها: كانت تبدو وكأنها ثعلب أبيض. عيناها ثابتتان في نقطة محدّدة وهي تلو صلاة عبادة بوذا.

تاي بصوت قوي:

- ماما... إنها تثلج!

أخرجت أو رن إحدى يديها بهدوء وحركتها باتجاه تاي، وكأنها
تقول: «ارجع! ارجع!»

— أمي، ستبردين!

حركت أو رن رأسها عدّة مرات جانبياً. وفي تلك اللحظة تبينَ
تاي أنه لا وجود لأي غراب. لاشك أن الغربان قد طارت باتجاه بعض
القرى بسبب الثلج، أو لعلّها عادت إلى أعشاشها. حدّث نفسه.
إنه لشيء جميل أن تتلج! ثم إن البرد هو أخفّ في موقع الثلوج منه
في المكان المعرّض لريح الجبل القارسة. وهكذا سوف تنام أمي.

— ماما، إنها تتلج، حظك سعيد!

وتابع مردّداً كلمات الأغنية:

يوم ذهابها إلى الجبل...

كانت أورن تبدي رضاها بتحريك رأسها من أسفل إلى أعلى،
وهي تمدّ يدها في الاتجاه الذي كان يأتي منه صوت تاي وتحركها
لتقول: «ارجع! ارجع».

— ماما، إنها تمطر حقاً! صباح ثم نزل الجبل راكضاً مثل أرنب
برّي أفلت فجأة. وخوفاً من فكرة أن يكون أحدهم قد علم بانتهاكه
لقواعد الجبل، أخذ ينزل قافزاً. وعندما بلغ موضعاً يقع فوق الوديان
السبعة، وحيث من المعتاد ألا يكون هناك أحد، لمح ابن بيت الفليس
وسط الثلوج وهو يحاول التخلص من اللوح المعلق إلى ظهره. وعلى
اللوحة كان يستقر ماتا-يان وهو موثق بحبل من قش مثل مجرم.

— الدنيء!

خرجت الكلمة تلقائياً من فم تاي الذي توقف فوراً. ذلك ان
ابن بيت الفليس كان يتهايم لقذف ماتا-يان من فوق الوديان السبعة.

كان يوشك على رميه في وادٍ تحيط به أربعة جبال، ولايسبر له غور.
كان تابي يرى ذلك بعينه.

«سيدحرجه إلى أسفل» أدرك قائلاً. عندئذ تذكر أن تيرو-يان
في الليلة السابقة قال: «إذا كان ذلك لا يعجبك، فلا بأس إذا عدت
من الوديان السبعة»

— هه! هذا ما كان يعلمه إذن!

وفهم لأول مرة. بالأمس هرب ماتا-يان، لكنه اليوم مقيد من
رأسه إلى قدميه. مثل كيس بطاطا، وبطريقة ليست لكائن حيّ،
تدحرج على الأرض. دفعه ابنه بيده وتبياً لرميه. لكن ماتا-يان،
بأصابع وجَدَتْ قليلاً من الحرية وسط الجبال، تعلق بطوق ابنه
وتشبث به. حاول الابن أن يتخلّص من قبضة تلك الأصابع. لكن
أصابع يد ماتا-يان الأخرى تشبّثت بكتفه. بدأت ساقا الشيخ تتدليان
بطريقة مقلقة فوق الوادي. ومن المكان الذي يوجد فيه تابي، كان
ماتا-يان وابنه يلوحان وهما يخوضان معركة يظنها المرء لعبة. عندئذ
رفع الابن ساقه و... طق! بركلة في بطن ماتا-يان جعلته يتدحرج.
هوى ماتا-يان مقلوباً، ورأسه نحو الوادي، استدار حول نفسه مرتين
مثل كرة، وما لبث أن سقط جانباً، وتدحرج على منحدر شديد
ليقضي في الأسفل. وعندما حاول تابي أن يلمح قاع الوادي، ارتفع
منه سرب غريان محمّمة، مثل عمود ماء مدّوم، مثل دخان أسود كثيف
يرتفع في كتلٍ ضخمة. ومثل فوران البخار ارتفعت محمّمة.

— غريان!

وأحس تابي بضيق كما لو كان جسمه يضيق. حوّمت الغريان في
جلبة غاق، غاق، وارتفعت راسمة دوائر عالية فوق رأس تابي.
«لاشك أن أعشاشها في مكان ما من هذا الوادي وقد جعلها الثلج
تلجأ إليها. وربما كان ماتا-يان قد سقط داخلها» ففكر.



بدأت الغربان المرفرفة في كل اتجاه تعود فتنزّل شيئاً فشيئاً إلى قاع الوادي .

— فريسة الغربان!

تملّكته رجفة من كثرة عدد الغربان . «لكنه بلغ القعر ميتاً بلا شك» فكّر تاي ثم نظر باتجاه الابن ، لاشك أن الأخير كان متضيقاً بدوره بعد رؤية الغربان . ها هو ذا يعيد ربط اللوح الفارغ إلى ظهره ويبدأ بالركض ، وكأنه يشق الهواء .

«عندما يُقدّم المرء على مثل هذا الصنيع ، فليس من المستغرب ألا يُقدّم سايك المادبة» ، فكر تاي ثم نظر طويلاً إلى الابن الذي كان يهرب منحني الظهر مثل ذئب يركض .

صار الثلج كثيفاً وكأنه يتساقط ندفاً . وعندما اقترب تاي من القرية ، كانت الشمس قد غربت ، وخيم الليل .

«من المؤكد أنني عندما أصل إلى البيت سأجد الصغرى حزينة لغياب أوران» . فكّر . وإذا سُئل :

— متى تعود جدتي؟

بماذا عساه يجيب؟ كان مرتبكاً تماماً . وصل أمام البيت لكنه ظل واقفاً خارج الباب ، يرى ما يحدث في الداخل .

في البيت ، كان ثاني الأبناء يسليّ الطفلة الصغرى منشداً لها أغنية :

في الجبل الخلفي سنهجر العجوز
لكن من الخلف سوف يعود سلطعونٌ زاحفاً

في غياب أوران كان الأطفال يتحدثون عنها . «لقد كانوا على علمٍ إذن!» حدث نفسه . كانوا يرددون ويعيدون أغنية السلطعون :

وعندما عاد زاحفاً لم ندعه يجتاز العتبة
فالسلطعون ليس طائراً يبكي مع مجيء الليل

في موضوع هذه الأغنية: قديماً في القرية كان الناس يأخذون
الشيوخ والعجائز ليهجروهم في الجبل الخلفي. وذات يوم هجروا
عجوزاً، فعادت زاحفة حتى البيت. عندئذ صرخ أصحاب البيت:
«لقد جاءت زاحفة، لقد جاءت زاحفة، مثل سلطعون!» ثم أرتجوا
الباب ورفضوا إدخالها. وتوهم أحد الأطفال الصغار في البيت أن
سلطعوناً، قد جاء حقاً، زاحفاً حتى هناك. ومكثت العجوز تبكي
طول الليل أمام الباب. وعندما سمع الطفل صوتها وهي تبكي، قال:
«السلطعون يبكي». وفكر سكان البيت بأن الطفل لن يفهم إذا ما
فسروا له الأمر، فقالوا له: «هذا ليس سلطعوناً. السلطعون لا يبكي
في الليل. هذا طائر يصيح». وهكذا خدعوه. وأغنية السلطعون تشد
هذه القصة.

كان تاي واقفاً عند المدخل يسمع أغنية السلطعون. وفكر بأنهم
ما داموا لا يغنون إلا هذه الأغنية فإنهم يعلمون جيداً بأن أو رن لن
تعود أبداً، وأحس بالعزاء لذلك. تخلص من اللوح الذي كان يحمله
معلقاً إلى ظهره ونفض الثلج الذي تساقط عليه أثناء السير. وأثناء
تأهبه لفتح الباب، خرجت ماتسو-يان من الغرفة. كان الزنار الذي
تتمنطق به حول بطنها المنتفخ هو الزنار الرقيق والمخطط نفسه الذي
كانت أو رن تنزّره حتى أمس. وفي داخل الغرفة الضيقة التي فتحت
ماتسو-يان بابها ثم خرجت، كان كيزا كيتشي يجلس متربعا على
الأرض بلا مبالاة، وقد ارتدى كمثرز، ذلك الثوب المبطن بالقطن
الذي طوته أو رن البارحة بعناية. كانت توجد بقربه جرة وهو يبدو
سكران بعد أن شرب بقايا الليلة السابقة. نظراته متلاشية، ورأسه
مائل في هيئة راضية وهو يكرر متعجباً:

— حظها سعيد. لقد أثلجت، حظها سعيد، جدتي... حقاً
لقد أثلجت.

بحث تايي، وكان لايزال واقفاً عند المدخل، عن تاما-يان لكنه
لم يلمحها في أيّ مكانٍ. تنهد طويلاً، ثم فكّر بأن أورن، إذا كانت
لا تزال حيّة تحت تلك الصخرة، هناك، فهي تفكّر من دون شك في
أغنية الثوب المبطن بالقطن:

مهما كان البرد شديداً
فالثوب المبطن بالقطن
لا يمكننا أن نغطيك به
عندما تذهبين إلى الجبل.

O tot chan — de te — mi ro
ka. re kya shi ge — — ru
I ka za a — — — naruma —
— — — sho ko shot — te

أيها الأب الصَّغير اخرج لترى الأشجار اليابسة وهي تنتفض
حان وقت الذهاب فضع اللُّوح على ظهرك

Rokkon rokkon na a_ rokkon rokkon
na a_ O tomaa raku no yô de
ra_ ku dja. na i _ i _
_ _ ka. ta. no_ o_ mo sa ni
_ ni_ no tsu ra sa a_ rok_kon_ shô _
jô ô _ rok_kon_ shô _ jô

سنة جذور، سنة جذور، يا سنة جذور
المرافقة تبدو سهلة وهي ليست كذلك أبداً
على الكتفين يكون الحمل ثقيلاً وشاقاً
آه! لتطهر الجذور السنة، لتطهر الجذور السنة

نارايماما

تأتي أحداث «نارايماما» على شكل مجموعة من الأغاني، يوهمنا الكاتب بأنه لم يقدّم سوى بجمعها من أجل إعادة منهجية لمجتمع كامل، عبر الإيجازات التي تتضمنها تلك الأغاني، وهذا ما يفسّر العنوان الأصلي الذي حاول أن يكون علمياً: دراسة في أغاني نارايماما.

تدور أحداث القصة في مجتمع مغلق تبخل عليه الأرض بالقوت فيلجأ إلى سنّ قوانينه وأخلاقه الخاصة والملائمة لندرة الغذاء. فيبدو المبدأ الأخلاقي قاسياً بل متوحشاً للوهلة الأولى، لكنه يتضمّن أعلى مراتب الفضيلة إلى جانب البشاعة. وتلوح فكرة البوذية الأساسية وهي عقيدة «الكارمان» التي تقول بأن «الأفعال تتبع صاحبها وتصنعه» في مصير شخصيات «نارايماما» وخصوصاً مصير ماتا-يان وأورن: الأول، بأنانيته، والثانية، بتفانيها وإنكار ذاتها. الأول، تلتهمه الطيور السوداء، والثانية، تغطيها الثلوج مثل زهرة لوتس بيضاء في أرض نارايماما المقدسة.

دار التنوير للطباعة والنشر ص . ب : ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان .

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر ص . ب : ٥٨٠٣٠ - ١١٣ بيروت - لبنان

التصميم: